خالد محمد خالد



مع الضمير الإنساني

في مسيره ومصيره

المقطم للنشر والتوزيع

مع الضمير الإنساني

في مسيره ومصيره

ظهرت الطبعة الأولى

من هذا الكتاب فى يناير ــ ١٩٦٣

الطبعة الثالثة

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان ـ عابدين ـ القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ ـ ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

خالد محمد خالد

مع الضمير الإنساني

في مسيره ومصيره



فى هذا الكتاب

مقـــــدمـــــة

لا وَقت عندنا لمقدمة طويلة، فإنى لا أريد أن أُرجِئ لقاءكم مع الموضوع والكِتاب ..

وإذا كان لابد أن يكون لكل كتاب مقدمة تُعرِّف القـارئ بغَرضه ومِنهاجه، فدعونى أصنع هذا فى كلمات سريعة.

• إن هذا الكتاب يُمثِّل رُؤية تاريخية لموكـــب "الضمـــير الإنسانى" فى رحلته، منذ بدأ مَسيره حتى يومنا هـــذا . رُؤيـــةً تسعى إلى استْجـلاء الخصائص التى يقود الضمير بـــها قافلـــة الإنسان صوْب كمالِها المقدور، كما تُحاول استِشراف المستقبل الواعِد لبنى الإنسان من خلال التجربة الحيَّة للضمير.

• ولَئن كان ثمَّت ما تعـــارفَ النـــاس علـــى تســـميته بـــ"الضمير الدولى" أو "الضمير العلمى" أو"الضمـــير الديـــنى"

أو"الضمير الاجتماعى" ـ فإننا نعنى بـ"الضمير الإنسانى" ما هو أعمُّ من هذا كله، وأكثر شمُولا .

نعنى به تلك البَصيرة التى أفاءها الله على الجنس البشرى فى مجموع أفراده. وعبقريَّاته، ورُؤاه.. نعنى به إرادة التفوُّق التى تقود بإلحاحاتها النبيلة وحَدْسِها القويم، جميع العائلة البَشرية لتعانق مصيرها الخيِّر العظيم .

• وبحثُنا هذا يقوم على فَرْض ..

فحْوَى هذا الَفرض، أن الضمير مشيئة حيَّة تعمل فينا، وأنه سَبق العقل فى الظهور وتفوَّق عليه، وأنه بدأ ـ يوم بدأ ـ رشيدًا واعيًا، كأنما معه من الله نور، وأن رُؤاهُ التى هتف بها حتى من ألوف السنين كانت واضحة الرُّشْد، وأما السَذَاجة التى صاحبت وسائل التعبير عَن تلك الرُؤى، فلم تكن مِن عمل الضمير ـ بل كانت من عمل العَقل الناشئ والفكر المُبْتدئ ..

وليس معنى هذا أن الضمير وِلِد كاملا، وأنه لاينمو.. كلا، لقد ولُد يحملُ رُشده، ويعرف بطريقة ما طَريقه، ثم هو بعد هذا ينمو ويتكامل مع الزمان .

وقد تسألون: كيف يَنهض بحثٌ كهذا على مجرد فرض..؟؟

وأجيبكم: إن "اينشتاين" ـ كما يقولون ـ، قد بنى نظريته فى

النسبية على اثنى عشر فرضا لم يكن بينها فرض واحـــد يمكـــن التدليل على صحته، ومع هذا فقد أفْضت تلـــك الفـــرُوض إلى نظرية النِّسْبية بكل ما تنطوى عليه من يقين وإعجاز ..!!

وصحيح أنه لابد أن يَكون للفُروض أساس منطقى حـــتى يمكن أن نتوصَّل بـــها إلى المعرفة واليقين العملى.. وأقول لكـم: أن فَرْضًا الذى ينهض عليه هذا الكتاب، له من الجدَارَة المنطقيـــة والتاريخية حظ كبير، يبدو هذا واضحًا ومُبينًا ونحن نبصر مـــن خلال الرحلة الطويلة للضمير، اتجاهَه الفذَّ نحو المصير الإنسانى فى وَحدة، وتكامُل.. وفى ألْمعِيَّةٍ لا تكاد تُخطئ، وتقدير لا يكـــاد يتعثَّر..!!

- ففى "عصر الرؤيا"، نرى الضمير الإنسانى يستشـوف فى حِذْق كل رَحِمٍ مكنونة بين البشرية والكون، والعالم..!!

وفى "صُحبة النبوَّة" نرى الوحْى يُزكىِّ الكثـــير مـــن رُوَّاه السَّالفة، ويمنحه من نور الله ما يشدُّ رُشده ويُثبت خطاه .

وفى "عصر العقل" نجد العلم بكل قوانينه، والإنســـانيات بكل جَيَشانِها وبـــهائها، يحملان المِشعل لِيتِمَّـــا بـــه كلمـــة الضمير..

- وفى عصرنا هذا، الذى أسميناه "عصر غاندى. والـــذَّرَّه"

يتمثل فيه كما قلنا فى ختام الكتـــاب نهايـــة مَســـيرٍ..وبدايـــة مَصير..!! فيستبين للبشرية طريقها الأوحد . ويستكمل الضمـير وَحدته ورُشده

* * *

وبعد، فقد خرجتُ من هذا الكتاب بيقين لاريب فيه.

هو: أن الأرض لن يرثها دُعاة الفتك، ولا أولياء التخلـف، ولا حَملةُ الكراهية..

بل سيرثُها عبادُ الله الوُدعَاء.. بُناةُ الحق والحُبّ.. صــانعوا السلام والرحمة.. أولياء الإيمان والعقـــل.. أصدقـــاء الإنســـان والحياة.

خالد محمد خالد

الفصل الأول

في عَصر الرُّؤْيا ..

أُلفى الإنسان نفسه جزءاً من حياة فذة. تعمل داخل كـون لا تنتهى عجائبه .

وفى البيئة القرية منه والتى تُمثّل عشيرته الأقربـــين كـــان يرقب المشاهد فى دهَش .

فالماء يجرى . وتجرى الحياة فى أثره .

والأرض تهتز بالزرع الطالع . تحمله فى عَناء، ثم تلِـــدُه فى حنان.ثم ترعى مع الشمس شبابه، حتى إذا جاء ميقاتهُ المعلـــوم أسْلَمته قرباناً للإنسان، وتَلقّفته مناجل الحصاد ..!!

وتعود الأرض، فتتلقّى البِذارَ من جديد، والغِراس.. وتُعاوِدُ كرَّتها، فتحمل وتلد، وتُعطى القرابين.

والإنسان.. ما الإنسان ..؟

إنه كَهاتِيك المواليد من الزرع.

تلده الحياة. وتدفعه الأرحام إلى أبهاء الوجود، ثم تلقَفهُ مَناجلُ الموت حين يجيء ميعاده .

بينما الحياة فى نشاطها الخالد لاتنى.. مواليد فى إثْر مواليد..!!

ويرنو ببصيرته إلى البيئة العليا.. هناك فى الأعمال البعيدة.. عند ذلك السَّقف المرفوع فيرى نفس المشهد .

الشمس تطلع كل صباح من المشرق، وتعبُر الآفاق فى رحلتها الجليلة وموكبها الأبدى، حيث تأوى آخر النهار لمستقرها فتهبط إلى مخدعها، ويموت يوم..

وفى الصباح تعود الشمس، ويُولَد يوم جديد. والقمر يطلع ذات ليلة على استحياء، خيطا من الضياء رقيقًا، وهَنَانًا، مُقوَّسًا ثم ينمو ويكتمل بهاؤه، ثم ينسحب من الحياة رُويدًا، رويدًا، حتى يختفى، ويختفى معه ضياؤه.. إنه يستريح من رحلته المضنية ليعُود ويستأنفها من جديد ..!!

والرياح تجرى مُرسَلَةً وعاصفة .

والرعود، والبروق، تروح وتجئ مُذكِّرة ومنذرة..

ما هذه العجائب..؟؟ وأيَّان مُرْساها ..؟؟

كان الناس يَحدِسون، ويفكرون .

وكان الضمير الإنسانى فى مَقره المستكنِّ يرصد ويتفحَّـص. ومَن يّدرى.. لعله كان أيضاً يتذكر ..

على أية حال، فها هو ذا يبصر فيما حوله مـــن مشـاهد الكون والحياة جلالاً واقتدارًا .

فهل يرهبـــها.. هل يحبـــها ..؟

هل يْدنُو منها ..؟ أم يُعرض عنها ..؟

هل يُسْلِمُها سمعه ليسمع هَمسَها ونَجْواها، أم يجعل بينــــه وبينها سَدًّا ..

الحق، أنه لم يكن له حق الاختيار فأين المفر ..؟!

إنه مهما يهرب من الأرض فإلى الأرض .

أو من الشمس ، فإلى الشمس ..

أو من الحياة والموت، فإلى الحياة والموت ..

إن خير ما يصنــــع إذن أن يتعــرف إلى هـــذه القُــوى والكائنات.

وأن يَعْرِض عليها صداقته وإخاءَه.

فلننظر كيف سيمضى الضمير.

إن أمر هذه العائلة لعجيب حقاً !!

العائلة التى تُذهلُـــه الآن بحركتـــها إنْ فى الأرض وإنْ فى

السماء. لابد أن لها عائلا كبيرًا، فإذا أراد أن يتعرف على العائلة كلها، فلا مناص من البدء بعائلها وكبيرها ترى ماذا يكون؟ ربًّا.. أم مَلِكًا.. أم أبًا ..؟

فليكن أى شىء من هذا ..

المهم أن يرحل إليه ويقرع باب داره، ويقول له: إنى أعرض عليك وعلى كَوْنك صداقتى؛ وصداقة الجنس الذى أمثله.

ولكن أنَّى له هذا الحكم السريع..؟ الحكم أن لهذه العائلة أبًا وعائلا ..؟

تلك هى سُنة الحياة كما يراها .

فلكل نبتَة خضراء، زارع يزرعها ويرعاها .

وهذا الكوخ، أو البيت ، له بانٍ بناه .

ولكل محراث صانعه، ولكل حديقة بستانيُّها ..

ولكل عائلة من بنى الناس أبوها .

فهذا الماء الذى يجرى.. والقمر الذى يبزُغ.. وصاحبة الجلالة "الشمس" التى يتحرك موكبها المهيب كل يوم وكأنها تستعرض رعاياها.. وهذه الرياح التى تسبح وتمرح حين ترضى.. وتزمجر وتدمِّر حين تغضب .

أليس لها "أبٌ" ولدها.. أم تراها ولدَت نفسها .؟

إنه يستطيع أن يرى وراء كل شيء فى دنياه أباه وصانعَه.

فمن هو"الأب" الذى ولدَ هذه القُوى..؟ ومـــن البــارئ الذى خلَق وسوَّى ..؟

لكنْ، هذه الشمس .

ـ وكذلك القمر، والريح، والســماء، والأرض، والنــهر، والبرق ـ بقوتــها الخارقة، وحركتها الدائبة، وطاقتها العارمــة وسِرِّها المخبو.

أتشَجَّع على الاقتراب منها فضلا عن عقد أواصر الصداقــة معها ..؟!

إنــها عوالم أخرى لا تمتُّ للإنسان بصلة ..

عوالم أخرى ..؟؟؟

كيف..؟ وهى جزء من حياتنا، وحياتُنا جزء منــها إننــا جميعًا نولَد.. ونموت.. ونبعث .

كلنا.. الشمس، والقمر، والزرع، والإنسان، والحيوان. إن هذا ليُشجع على أن يكون بيننا وبين هذه القُوى إلف وزمالة .

صحيح أنها رهيبة، ومحيرة، وتشع منها قداسة عُلْوية .

بَيْد أنَّ صداقتها رغم هذا كله. هى خير سبيل لفهمـــها، وتَجنُّب بأسِها .

وإذْ كانت الصداقة بين صغير وكبير.. بين الإنسان الضعيف وبين القوى التي يبدو أنه مَدين لها بحياته وبقائه. فستأخذ من أجل هذا طابع التقديس والعِبادة ..

وأى بأس ..؟؟

نعبدُها ؟؟ ليكن ذلك وهل العبادة إلا التوقير في مُستوىً أعلى.

ولماذا لانُوقِّرها، وهي ـ فيما يبدو ـ أهل لكل توقير؟!

هكذا ـ فيما نحسب ـ كان حديث الضمير مع نفسه في فجر حياته.

إنه يقترب من أفراد العائلة المقدسة جميعًا، ويعطيهم حبه وصداقته وتقديسه .

وإنه لشئ باهر حقاً، أن يبدأ الضمير عمله بعقد صداقة بين الجنس البشرى والكون بأسره ..

إن كثيرًا من المؤرخين، وفلاسفة التاريخ الذين يقفون عند هذا الشُروق للضمير الإنساني لايرون وراء عبادة تلك القُوى سوى التخبُّط والخوف .

أما نحن، فدعْنا نذهب إلى الرأى الآخر.. دعْنا نقُل في غير مُغالاة: إن الضمير الإنساني كان يعرض صداقته على الكوْن

لكى يطمئن إليه ويفهمه جيدًا.

وكانت طقوس العبادة التى تـــرك النـــاس يمارسونـــــها يومذاك. شعائر هذه الصداقة الكونيّة المبكرة .

صحيح أنه سيكون ثَمَّت تخُبط، بيد أن التخبط سيكون فى الأشكال والطقوس، لأنها من عمل العقل واختراعه أما "الرؤيـــا" نفسها..أما"الجوهر" ذاته، فأمر عظيم باهر العظمة.. هذا الـــذى تحاول حضارتنا اليوم فى ذروتـــها أن تصنعه. مصافحة الكـــون وفهمه..!

إن"الفكرة" ذاتـــها من وحى الضمير وعمله .

أما تنفيذها فمتروك للعقل.. والعقْل يومئذ رغم مهارتـــه فى الحضارة العمرانية والعملية، فإن قدرته على التخطيط الروحــــى كانت محدودة وقاصرة .

من أجل ذلك ستجىء وسائله فى التعبير عن رُؤى الضمـــير ساذجة وغريرة .

وهى تبدو ساذجة وغريرة اليوم، بعد خمسة آلاف سنة من حدوثها.. وبعد أن نخلعها من إطارها الزمنى، ونخرجها من بيئتها التاريخية، ثم ننشرها اليوم تحت أعيننا، ونقيسها بمقاييسنا فى القــرن العشرين.. تلك المقاييس التى أثمرتـــها تجارب خمسة آلاف عام،

لم يكن منها مع العقل الإنسانى يومذاك شيء !!

* * *

لقد اتجه "الضمير الإنسانى" إلى مؤاخاة الكون فى ذلك المطلع البعيد.. وأملى على قُوى الذهن مشيئته.

ولسوف نجد"جوهر" هذا الاتجاه موجودا يومذاك فى كل مكان يوجد فيه بشر متحضرون .

سنراه فى مصر القديمة.. وسنراه فى أشور.. وفى بابل. ولكن ستختلف وسائل التعبير باختلاف طبيعة التفكير فى كل بيئة وبلد .

* * *

والضمير وهو يُحسُّ الحاجة لهذه العلاقة وهذه الصداقة ثم، وهو يُضَمِّنها أعلى درجات التوقير، وهى العبادة، لاينسى ـ وحقًا لكَم كان فى هذا باهرًا ـ نقول لاينسى أن يقيم هذه العلاقة على التوقير المتبادَل، والتكافؤ الملحوظ .

فحين يخلع على هذه القوى السيادة والالوهة، سنراه يخلعها كذلك على الإنسان .

وإذا كان الإنسان سيتجه بالعبادة والتقديس لقُوَى الكون هذه، من شمس وكواكب، وماء وأرض، وفى صورة ابتهالات

وقرابين؛ فإن هذه القوى نفسها ترد إلى الإنسان التحيَّة بأحســن منها، وذلك بعملها الدائب فى سبيل حفظ حياته واستمرارها.

بل إن هذه القُوى لهى البادئة بتحيَّة الإنسان، وذلك بعملها من أجله منذ مجيئه الأرض، وقبل مجيئه..!!

إن الضمير يُحيِّى هذه القوى إذن ويُحيِّى الإنسان معها إنـه يُحيِّى أصدقاءه الجدُد المعظَّمين .

فليكونوا إذن سادة، وليكونوا آلهة، وليكن الإنسان عضــواً فى أسرة الآلهة .

ترى، لماذا مادام"الإنسان" موضوع تكريم هذا الضمــير، لم يضع الضمير صفة"الإنسانية" مكان صفة "الألوهية" ..؟

لماذا لم يُسَمِّ هذه القوى العظمى"أناسِيَّ" بدلا من "آلهة".؟؟

إن فى هذا لبرهانًا آخر على صدق حسِّ هذا الضمير.

إنه مع تقديسه نوعَه الإنسانى. لايرى فى الإنســــان ولا فى الإنسانية كلها حلَّ اللغز الخفى الكبير الذى يحيط به ويُحـــيِّره.. إن الإنسان جزء من اللغز، لاأكثر .

فالإنسان، ليس هو الذى أنشأ الأرض التى تخرج الـــزرع والثمر، وتحمل على ظهرها الناس والأنعام ..

والإنسان ليس هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم..

والإنسان ليس هو الذى خلق المياه التى تَلِد الحياة والأحياء.

فلابد من وجود قوة أعلى .

أنسمى هذه القوة "إنسانية" ..؟؟

كيف؟ والإنسان مجرد مظهر من مظاهرها، وآية من آياتها..؟ إنها شئ أكبر ..

إنها "الألوهة" ..

* * *

ولكن إذا كُنا جزءًا من هذا اللغز الكبير. من هذا الكون العظيم ، فلماذا لانبقى بقاءه ...

إن النهر يموت. لكنه يحيا وتتجدد حياته عند الفيضان كل عام، فالموت بالنسبة له غياب عارض، والخلود هو القاعدة..

والشمس تموت كل يوم فى الغرب، وتقضى الليل كله فى بَرزخها الروحى، لكنها تعود للحياة كل صباح، فهى خالدة والأرض تموت حين تقفر من الزرع وتبقى هامدة.. لكنها تعود إلى الحياة فتهتز خضرة وبهجة وعَطاء، وهى إذن خالدة.. والنجوم تموت فى النهار؛ وتُولد فى الليل.

وهكذا تبدو الحياة حركة دائبة يتناوَبها الوضوح والخفاء

والحضور والغياب.

وإذا كان الغياب يعنى الموت؛ فإن الموت كذلك لايعـــنى شيئاً سوى الغياب .

وما دام كل شئ يموت ويحيا، يغيب ويعود، فالإنسان ليس بمعزل عن هذه العملية الكبرى التى تحتضنها ديمومة ليـــس لهـــا منتهى .

إنه إذن لايخضع لفناء نهائى مطلق .

بل إن له لبَعْثا وعَودة بجسده ونفسه، أو بنفسه فى جســـد جديد .

المهم أن الموت ليس إلا اللَّيْل الذى يخترم طريـــق حيـــاة الإنسان ـ أى إنسان ـ وسيعود الموتى إلى الحياة، أو تعود إليـــهم الحياة، فوراء كل ليل صباح .

هناك إذن"كَوْن" ، والإنسان جزء منه .

هناك إذن " أُلُوهة "، والإنسان جزء منها .

وهناك إذن"خلود" ، والإنسان جزء منه.

وكما ذكرنا من قبل، لن تقتصر رُؤى الضمير الإنســـانى هذه على بلد دون آخر .

بل سنلتقى بـــها فى العالم القديم كله .

فى مصر القديمة.. وفى أشور.. وبابل.. وفى الهند والفرس، وأثينا.

ولن يكون ثمت تباين فى وسائل التعبير عنها .

والآن، فلننظر كيف سارت التعبيرات الإنسانية عن هذه الرُّؤَى والكُشوف خلال المسلَك المتباين والتطبيقات المختلفة فى تلك الحضارات القديمة .

وبتعبير آخر، لننظر "عملَ الفكر" تِجاهَ "رُؤى الضمير"

على أنه لاينبغى لنا الظنّ بأن الفكر سيعمل بمعزل تام عن الضمير فى هذه القضايا وفى سواها من القِيمَ التى سيُوالى الضمير كشفها.. إنهما يعملان معاً فى تفاهم وثيق .

بيدَ أنّ الضمير وهو يتابع كُشوفه ورؤاه ويتلقّى انعكاساتها المتجددة عليه ويحتضن نموها المتزايد فى داخله.. وإنما يفعل ذلك فى حدود علاقته بجوهر الحقيقة لابأشكالها ..

فهو مثلا يُحِسُّ الألوهة، بجرد الألوهة هذه القوة التى تتمثّل فيها، وتنطلق منها كل طاقات الحياة .

ولكن هل هذه الألوهة مُشخَّصة أم مجردة.. واحدة أم متعددة .

إن الفكر سيمضى فى تفسير ذلك كله وَفق تجربته، فتارة

يُشخِّصها وتارة يجردها.. ومرة يبثها فى قوى الكون .وأخـــرى ينقُلها إلى الأوثان والكهنة .

والضمير فى نفس الوقت ماض يـــوالى اســتجلاء رُؤْيـــاه وحَدْسِه، فبعد حين يشرق فى باطنه جزء آخر من الألوهية تتمثل فى هذا الجزء وحدانية الإله.. وهكذا يمضى سَنَنُه ونهجُه تجاه كل كُشوفه ورُؤاه.

ولعل سؤالا يواجهنا الآن:

ـ أين كان الضمير من هذه الغَرارَة الفكرية المُتبدِّية فى تعبير الفكر عن رُؤاه .

ولماذا لم يرسم الضمير للفكر الأسلوب السَّوىّ والمنـــــهج الصحيح..؟

وإذا كان قادراً على استشراف الحقائق، وكشف القِيــــم وامتلاك"الرؤيا" التى يستطيع أن يتعرف بـــها إلى جوهر الأشياء فلماذا لم يستعمل مواهبه تلك فى هدايـــــة الفكـــر إلى التعبـــير السديد..؟؟

والجواب فيما نرى يتلخص فى:

أولا: أن الضمير الإنسانى لايعرف كل شىء، وهـــو وإن يكن يمثل "العقل الأعلى" فإن المجهول لايتكشف له إلا بقـــدَر،

وفى ميقات.

ثانيا: أن الضمير الإنسانى يدرك أن فعَالِيَّة الإنسان كامنة فى قدرته على الحركة الحرَّة. والاختيار الطليق وهو لهذا لايحدّ من حركته ولا يتحكم فى اختياره، فإنه لو فعل يكون قد وضَع فى طريق نُمُوِّه العقبات.

إن كل نمو يُحرزه العقل والفِكر لخَيْرُ مِعوان للضمير على بلوغ أغراضه، وتحقيق إراداته .

وإذا كانت الحرية شرط نمائه، فإن الضمير الإنسانى لن يكون بحاجة لإدراك أن الخطأ الذى يجىء معه النُّمو خير من الصواب الذى يُخيم معه العجز والإخفاق .

* * *

والآن، فهاهو ذا الكون القريب من الإنسان يموج بالآلهة

فالهواء إله ، اسمه"شو"

والأرض إله ، اسمه"غب"

والسماء إله، اسمه"نوت"

والشمس إله، اسمه "رَع"

وسيخطو الضمير خطوة يتعرف فيها إلى رَب هذه الأسرة الكونية كلها .

فليكن هذا الإله"رع" فى مصر، أو"مَــــرْدُوك" فى أشـــور أو"براهما" فى الهند .

وليتصوَّر الفكر الأسطورى الآلهة على النمط الذى تمليـــه عليه خبرته وسذاجته فى كل مكان من ذلك العالَم البعيد .

إن ذلك جميعه ليس أكثر من تنوُّع للصورة وتعبير عن رؤيا الضمير .

وخلال هذه التغييرات جميعها علينا ألا تشغلنا الكلمة عـــن "الفكرة" ولاالشكل عن"الجوهر" ..

ويتساءل الضمير .

ما مكانُ الإنسان من الإله فى حركة الحياة كلها ؟

وما منـــزلة الناس لدَى الإله ..؟

وتجيب الأسطورة المصرية القديمة قائلة :

"لقد صنع ـ الإله ـ السماء والأرض حسب مشيئته.

وصدَّ وحْش المياه وصنع نَفس الحياة لخياشيمهم ..

إنـــهم صُورٌ له انطلقت من جسده "

الناس إذن صور الإله انطلقت من جسده حسب التعبـــير القديم .

وبتعبيرنا الحديث اليوم الذى يُقره الدين ذاتـــه ـــ تصبـــح

العبارة القديمة هكذا ـ "فى الإنسان ألوهة".

كذلكم كان العراقى القديم فى ذلك الزمن البعيد حين يريد تحصين نفسه، يهيب بقوى الألوهة الكامنة فيه فنراه يقول:

"إنليل رأسى ـ وكـــان إنلل فى تفكيرهم إلاهـــاً "

"والنهار وجهى . . . . "

"وأوراش الإله الفذ، هو الروح الحامية التى تهدى خطاى "

"عُنقـــى قلادة الإلهة إنليل . . . . "

"وذراعاى منجل الإله الغربى . . . . "

"وأصابعى من عظام آلهة السماء . . . . "

على أنه لم يكن الإنسان وحده مَجْلى الألوهة.. بل كل أشـــياء الطبيعة وذرّات الحياة .

فما نعدّه اليوم من عالم الجماد أو النبات، كان يومـــذاك طاقة إلاهية على أسرارها البالغة ـ فالبوص مثلا ، عنـــد أهـــل الرافدين، وقبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، لم يكن مجرد "بُـوصْ".. لم يكن مجرد نبات.. بل يتضمن إرادة إلاهية، وقدرة إلاهية هـــى التى تجعل"البوصة" تصدح بالنغم الحلو حين تكون"نايًا"، وهـــى التى تجعلها تَنثر الحكمة، حين تتحوّل إلى"قلم" ..!!

والمِلْح ـ مثلا ـ يتضمن نفس الإرادة والقوة .

من أجل ذلك، كان"الأشورِى" القديم يُناجيه حين يُلم به مـرض فيقول :

"أيها الملح

"حُلّ عنى العقدة :

"وكخالِقى، أرفع المجد والتسبيح لك .."

والقمح ـ مثلا ـ فيه ألوهة. ومن ثم فهو يصلح قربانًا وسفيرًا بين الإنسان والإله .

من أجل ذلك فحين يقدمه البابلى القديم قربانـــا للإلـــه، يستقبله فى خشوع ويناجيه قائلا:

"إنى أرسلك إلى إلاهى.

"فقد امتلأ قلبه سُخطا علىّ ..

" أصلِح بينى وبينه ... "

* * *

وتظل فكرة الألوهة تتبلور وتتحدد فى مصر القديمة تحـــت ضغط الضمير ودفعه، حتى نراها تفقد رويدا رويدا الكثير مـــــن تنوعها وتشكيلاتها ..

إن الألوهة فى حس الضمير أكثر جلالا ووحدانية من تلـك التشكيلات التى أقامها الفكر، سيما عندما دخل الكهنة الميـدان،

وارتبطت مصالحهم المادية بالدين، ومن ثم فالضمير وهو يتابع سيره يعكس على الفكر رؤاه فنرى الرغبة تسير اتجاه التوحيد مبتدئة بالثالوث، منتهية إلى الوحدانية، وهناك نلتقى بهذه النصوص .

"كل الآلهة ثلاثة، آمون، ورع، وبتاح، ولاثانى لهم "

إن عبارة"ولاثانى لهم"تدل على أنهم يجعلون الثلاثة واحدا.

وفى النص التالى نجد هذا المعنى فى وضوح أكثر .

"هو الواحد: آمون، ورع، وبتاح ـــ ثلاثتهم معا".

إن تنوع الظواهر وسلطانها، أتاح الفرصة يومئذ لتنوع الآلهة وتكثارها .

ولكن وحدة الكون. التى كان الضمير يحسها جيدا، ويدعوا الفكر إليها. كانت تلاشى شيئا فشيئا تأثير هذا التنوع على الفكر، وتدعوه إلى الوحدة .

وهكذا تركزت الألوهة فى ثلاثة ـ آمون، ورع، وبتاح، شريطة أن يكونوا معا إلها واحدا.. ولكن كيف يكون الثلاثة واحدا ..؟

إن كل شئ ممكن فى سبيل الوصول إلى "الواحد".

وهكذا يمضى النص فيقول :

"هو الواحد: آمون، ورع، وبتاح ـ ثلاثتهم معا"

"آمون هو الإله، ورأسه رع، وجسمه بتاح"

هنا نلتقى بسذاجة التعبير، والشكل الخارجى لفكرة تناهت من حيث جوهرها فى السمو والنبوغ .

وتجىء الخطوة التالية فى التوحيـــد الحاســـم حـــين يجـــئ "إخناتون".

إن"إخناتون" واحد من الأفراد الذين يختارهم الضمير أحيانا ليقوموا بعمل جيل أو أجيال .

فيومذاك، وقبل الميلاد بسبعين وثلاثمائة وألف عام يوجـــه إخناتون كل سلطانه كملك ضد التعدد الذى رآه شركا .

لقد واجه بأس الكهنة وضراوة التقاليد الدينية للشعب كلـه بعزم فذ .

وراح يهدم ويحطم جميع محاثم الأصنام، ويلغى بجرة قلـــم جميع طقوسها وشعائرها، معلنا أن"آتون" هـــو الإلـــه الواحـــد الأحد، وليس هناك إله آخر معه ولا إله آخر سواه .

ولكن ما هذا الإله آتون ..؟

إنه القوة اللانهائية .

إلى هذا وقضية التوحيد تمضى على أحسن مايرام .

لكن الفكر لم يخلص بعد من شوائبه، ولاتزال الشمس صاحبة أعظم سلطان على الأفئدة .

وإذن فلتكن هذه القوة اللانهائية حالة فى الشمس .

وليكن"آتون" إذن هو الاقتدار الهائل الكامن فى الشمس .

وبمعنى آخر. إذا كان لابد أن يكون للإله الواحد رمز فليكن رمزه الشمس .

ومهما يكن من أمر، فقد كان عمل "إخناتون" هذا الذى تم لحساب الضمير الإنسانى كله.. نقول كان وثبة فى تاريخ قضية الإيمان والتوحيد.. والآن، فلنتعرف إلى الإله الواحد"آتون" من خلال صفاته، كما نراها فى الابتهالات والآناشيد التى وضعت يومئذ لمناجاته ودعائه .

"أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

"أنت ياآتون الحى الذى كنت فى أزلية الحياة

"فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى كنت تملأ كل البلاد بجمالك .

"أنت جميل وعظيم ومتلألئ ومشرق فوق كل أرض

"وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك .

. . . .

"أنت خالق الجرثومة فى المرأة

"والذى برأ من البذرة بشرا

"وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

. . . .

"ما أكثر تعدد أعمالك

"إنــــها على الناس خافية

"يا أيها الإله الأحد

"الذى لايوجد إلى جانبه إله آخر

"لقد خلقت الأرض وفق مشيئتك

"وحينما كنت وحيدا، لاشئ معك

"خلقت الناس والماشية والغزلان

"وجميع ما على الأرض مما يمشى على رجليه

"وجميع ما فى أعلى ، مما يطير بأجنحته"

* * *

وهنا وقد تجلت الألوهة بكل سلطانها فى إله واحد أحـــــد، يظل الإنسان آخذا مكانه فى دائرة الألوهة كذلك، فهو موضوع رعاية الإله.. بل هو"ابن" الإله، ففى الأنشودة نفسها نرى هـــذه الابتهالات.

"إن جميع الناس سويت وجوههم

"لكى لاترى نفسك بعد وحيدا

"إن ابنك إخناتون يعرفك

"فقد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك"

وفى تشبيه آخر يبتهل فيه إخناتون إلى الإله الأحد، فيقول:

"أنت تشرق بجمالك ياآتون الحى يارب الأبدية

"إنك ساطع وقوى وجميل

"وحبك عظيم وكبير

. . . .

"كل ما خلقته يطرب أمامك

"ويفرح ابنك الجليل وقلبه فى حبور"

ولئن كانت صفة النبوة قد تكررت. مختصا أخناتون بـــها نفسه. فإن ذلك لم يكن يعنى نفيها عما سواه" ففى نفس هـــذا النشيد نلتقى بهذه الفقرة .

"إيه أيها الإله الذى سوى نفسه بنفسه خالق كـــل أرض وبارئ من عليها "

. . . .

"وأنت الأب والأم لكل من خلقه"

وبعد، فغدا يذهب"إخناتون" وتقتلع ثورة عارمـــة كـل توحيده ونظامه، وتعود الآلهة والمعابد والكهنة . ولكن كل ذلك لايجدى، فقد ظهرت قضية التوحيـد فى الوجـود الإنسانى كحقيقة ناجحة، ولقد رفع الضمير رايتها حيث لا تستطيع يـد أن تنالها، وستظل فى مكانها تذكر الغادين عبر الأجيال بالإلـه الواحد الأحد، حتى يجىء عصر النبوات ومعه اليقين ..!!

وتدعم وحدة الكون نفسها فى حركة الفكر، ولا يكتفـى يومذاك بالوحدة المعنوية. بل تخلع عليها وحـدة "بيولوجيـة" فتقول الأسطورة فى مصر القديمة .

"كانت السماء مضطجعـة علـى الأرض، ثم انفصلـت عنها".. أى أن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة .

أما كيف تم هذا الفصام .

فتقول الأسطورة :إن إله الهواء"شو" رفع السماء بذراعيـه القويتين، وبقى ناهضا كأعظم عملاق..قائمـا بـين السـماء والأرض.

وتتضح الوحدة البيولوجية أكثر فى رؤياهم أن كل شـىء خلق من الماء، فالماء أصل الحياة وأصل الكون .

وهذه الوحدة الكونية تعكس آثارها على الإنسان بصـورة

تدعم بـــها نفسها فى شعوره وتفكيره .

فقد اعتقدوا يومئذ أن كل فرد إنسانى مرتبط ارتباطا وثيقـا بحركة الفصول الأربعة وبحركات الكواكب والنجوم ..فى كـل شئون حياته من مرض وعافية ورزق وحظوظ وموت ..!!

ووحدة الحياة كوحدة الكون .

فكل الكائنات الحية على الأرض أسرة كبيرة ؛ لأن الإلـه خالقهم جميعا .

وإذا كانت العبادة هى أسمى أعمـــال الإنســان وأرفـع واجباته، فإنـــها يومذاك لم تكن شرفا للإنسان وحـــده.. بـل وللحيوان أيضا.

فالأنشودة التى يبتهلون بـــها إلى الإله"رع" تقول :

"القردة تعبده ..

"والحيوانات كلها تقول بصوت واحد: الحمد لك" ..!!

* * *

والحق أن تركيز الضمير على وحدة الكون كان عظيمـــا وأكيدا .

لكأنه كان يحس أن كل مغانم المصير الإنســـانى مرتبطـة بإدراك هذه الحقيقة والعمل وفقها.

وفى استجابة الفكر لإلحاحات الضمير هذه.. نراه يثـــابر على توسيع اقتناعه بـــهذه الوحدة وتنمية مفهومها، حتى يتـــاح له يومذاك أن يرد عناصر الكون كلها إلى جوهر واحد ويـــرى إمكانية أداء عنصر، وظيفة عنصر آخر..!!

ولندع كتاب"ماقبل الفلسفة" يحدثنا فيجلو لنا هذه النقطة.

"..وأول دليل على أن عناصر الكون من جوهر واحد هـــو مبدأ التبادل. فقد كان من السهل على العنصر الواحد أن يحـــل محل العنصر الآخر .

فالميت يريد خبزا لكى لايجوع فى العالم الآخر، فكان يقـــوم بسد حاجته هذه بضروب أخرى من الخبز. فيصنع من الخشـــب أرغفة، توضع معه فى قبره"

"وللآلهة عندهم أبدال آخرون، فإن ملك مصر، وهو أحـــد الآلهة، ذو طبيعة متحولة تجعل فى وسعه الاندماج مع أقرانه الآلهة حتى يصير واحدا منهم ..

"والمصريون فى هذا، لم يفرقوا بين الرمزية والمشاركة" "فإذا قالوا: إن الملك هو الإله حورس، لم يقصدوا بهذا أن الملك يلعب دور"حورس" بل يقصدون أن الملك هو"حورس" بـــالفعل.. وأن الإله حورس موجود فعلا فى جسد الملك طوال فـــترة النشـــاط

المعين الذى يتطلب حلول الإله ..!!"

* * *

ولقد كان الأمر كذلك فى بابل، وكانت تذهب فى وحدة عناصر الكون وردها إلى جوهر واحد، نفس مذهب الفكر المصرى، وتعبر عنه فى أشكال مماثلة.

وسنلتقى برؤيا الضمير الإنسانى عن الألوهة ، ووحدة الكون، والخلود بعد ذلك فى الهند والصين، وأثينا ، وفارس كل يعبر عنها وفق تجربته وتفكيره .

* * *

ترى ماذا كان الامتداد الطبيعى لرؤى الضمير ..؟

لقد تمثل هذا الامتداد فى رؤيا عن العلاقات التى يفرضها وجود هذه الحقائق .

فإذا كان ثمت إله، وخلود، ووحدة بين عناصر الكون وقواه: فما هو الأسلوب الذى يحمل بالإنسان أو يتحتم عليه أن يعامل به هذه الحقائق .

وهكذا نلتقى بالضمير، وهو يستشرف"العلاقات" التى سيفاعل بها الإنسان وجوده مع الإلوهة، ووحدة الكون، والخلود ـ أو بتعبير أصح؛ يستشرف "جوهر"هذه العلاقات .

نلتقى به وهو يثير القيم والأخلاقيات التى ستبث التماسك وإرادة الصعود فى الصفوف البشرية، وسيبلغ فى تقديسه لها الحد الذى نراه يخلع عليها أو على أمهاتها ألوهة وتقديسا يتبديان فى عمل الفكر حين يجعل العدالة إلها اسمه"ماعت"..

لقد تجلت الحياة عظيمة أمام الضمير الإنسانى ، فسأل نفسه: ما أغراض هذه الحياة ..؟

ثم مضى فى سعيه النبيل، وارتياده المستبسل يبحث فى طريق الحقيقة عن الجواب.

ولسنا نزعم أن أغراض الحياة جميعا قد استبانت للضمير مرة واحدة فى ذلك العهد السحيق .

وإنما استطاع يومذاك أن يدرك منها ما يكفى لأن يتصور الناس به جلال الحياة ويصوغوا مسعاهم وسلوكهم وفق هذا التصور وهذا الإدراك .

ولعل مبتكر الأمر كله تمثل لدى الضمير فى اكتشافه مسئوليات الإنسان وكيف يعيش"مواطنا صالحا"فى كون الله...

ذلك أن الضمير الإنسانى لم يتصور يوما أن فى هذا الكون الرحيب فراغا، أو أن فيه سلبية وبطالة .

فهو ممتلئ بالحركة العامرة بسر الألوهة.. وكل شئ فيه

يعمل، إذ له دور يتحتم عليه أداؤه .

وللإنسان كذلك دوره الكبير العارم فكيف يؤديه.؟

إذا كان هناك وحدة كونية تربط الكائنات جميعها بعضها ببعض. فإن هناك لاريب وحدة إنسانية تجعل الإنسان للإنسان صديقا وأخا.

وإذن فأول ما يتحتم توفره لتستطيع البشرية أداء دورها هو هذا الانسجام بين أفراد النوع كله.. تماما كذلك الانسجام القائم بين كل أشياء الكون ـ أرضه وسمائه .

إنه تقديس الرحم الإنساني. القرابة الإنسانية التي تتيح للجنس البشرى أن يضع التعاضد مكان التخاذل ، والحب مكان الكراهية والإقناع مكان الخنجر ..

ولكن كيف تحيا هذه الرحم .؟

كيف يجد الإنسان أخاه بدل أن يفقده ..؟

كيف تهزم القرابة القطيعة ..؟

إن الضمير يعرف ـ ولسوف يجيب ..

وهو خلال بحثه عن الجواب سيكشف لنا العدل، والحب والصدق، والتضحية، والشجاعة، والأمانة، والحرية، والكرامة، وسواها من أخلاقيات التقدم الإنساني وضروراته.

وسيتخذ من تقديس الأسرة دائما وسيلة لتدريـــب كـــل فضائل المحبة والصداقة.

فما دام الإنسان مفطورا على حب نفسه، وأبويه، وإخوتـه وأقربائه، فإن كل تنمية لقوة الحب داخل هذه الدائرة ـــ دائـــرة الأسرة والعائلة ـ تـــهيء للحب فيما بعد فرص الانتشار العظيم، حتى ينال الناس جميعا ..

وهو كلما تم له اكتشاف فضيلة تبناها وخلع عليها مـــــن الحتمية والقداسة ما يزجر كل تفريط فيها أو عدوان عليها.

وإنه لينذر أفـــراد للنوع الإنسانى سلفـــا، بأنـــــهم لـــن يستطيعوا أن يحترموا هذه الأخلاقيات فى العلـــن ويخونوهـــا فى السر.

ذلك أن فى كيان كل فرد وتركيبه ما يكشف خبأه ويعلـن طويته سيما أمام الله الذى يسمع كل شيء ويراه .

ومع كل فرد ـ كما سيصور الفكر ـ قرين، يسمى ال"كا" يحصى أعماله، ويسمع هواجس نفسه، ويبصر خائنـــة عينـــه.. وكل إنسان مسئول أمام الله؛ وأمام ال"كا".. هذه الروح الحالـة فيه أو اللاصقة به .

وفى تلك البدايات المبكرة والقوية أيضا، نجد الضمير يركـز

على العدل وتكافؤ الفرص تركيزا كبيرا .

فحين نطالع حركة الفكر القديم، والفكر الأشورى والبابلى، نجد الكلمات كلها صداحة بالعدل، لاسيما فى مصر حتى لكأنما تراءى لهم العدل يومئذ، وكأنه دون سواه أو على الأقل قبل سواه، القانون الذى تقوم به السماء والأرض.

وإن كل شعيرة وقربان ليفقدان مع الظلم قيمتهما .

يقول الفكر المصرى القديم :

"إن فضيلة الرجل المستقيم ، أحب إلى الله من ثور الرجل الظالم ـ يعنى قربانه ـ"

* * *

"إن العدالة خالدة الذكرى، فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر، ولكن اسمه لايمحى من الأرض"

ونبضات الضمير يترجمها الفكر فى آيات مشرقات تلتقى بها فى تعاليم أمنموبى، وبتاح حتب، وكاجمنى، وغيرهم من حكماء مصر الأقدمين.

"احذر أن تسلب فقيرا بائسا

"وأن تكون شجاعا أمام رجل مهيض

"ولاتجعلن نفسك رسولا فى مهمة ضارة"

"لاتزحزحن الحد الفاصل بين الحقول

"ولا تطمعن فى ذراع أرض

"احذر رب العالمين

"ولا تعتدين على حرث آخر

"إن المكيال ـ الواحد ـ الذى يعطيكه الله، خير من خمسة آلاف تكسبـــها بالبغى

"وأرغفة تكسبـــها بقلب فرح

"خير لك من ثروة مع شقاء"

* * *

والعدالة الاجتماعية التى تجعل الناس سواء فيما رزقـــهم الله من فضله، هى الشغل الشاغل يومذاك للضمير والفكـــر وإنـــا لنعجب ! كيف، وقبل الميلاد بحوالى أربعة آلاف عام كانت هذه الإشعاعات تملأ الحياة فى إلحاحها العظيم هذا..!! وكيف كـــان الضمير والفكر يتتبعان دقائق السلوك الإنسانى الـــتى يمكـــن أن تنحرف بالناس عن طريق العدل الاجتماعى وتبعاته ..

لننظر ..

ـ"إذا أصبحت عظيما، بعد أن كنت صغـــير المكانـــة .. وصاحب ثروة، بعد أن كنت محتاجا..؛ فلا تنسين كيف كـــلنت

حالك فى الزمن الماضى، ولاتبغين بثروتك التى أتتك منحة من الإله، فإنك لست بأحسن من أقرانك الذين حل بهم الفقر" .

"احذر الشراهة، فإنها مرض عضال، والصداقة معها مستحيلة".

* * *

"لاتأكل الخبز أمام من لايجده،دون أن تمد إليه يدك بالخبز"

* * *

لاتصنعن لنفسك معبرا على النهر ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع أجره "

"خذ الأجر من الرجل صاحب الثروة .."

"ورحب بمن لايملك شيئا"

* * *

لقد ذاعت هذه التعاليم فى عصرنا المديد، وكان لها من الاحترام ما جعلها إرادة الضمير حقا، وما جعل لها يومذاك بين أهلها وذويها حرمة القانون ونفاذه .

* * *

ويرتبط العدل بالحكومة ارتباطا يجعل مصير الاثنين واحدا فى تلك التعاليم ..

"إن كنت زعيما فى يدك تصريف الأمور، فـــاغتنم كـــل فرصة كريمة لتجعل تصرفك خاليا من كل خطأ، فالعدالة لهـــا فائدها، ومنفعتها باقية، ولم يعبث بــها أحد منذ زمان صانعها، بينما القصاص فى انتظار كل من لايأخذ بقوانينها"

* * *

ومنذ عهد "أمنمحات الأول" يوضع تقليد يفرض على كل من يتولى الوزارة أن يحفظ هذه الوصية ويقسم على احترامها ــ وهذه بعض فقراها .

"اعلم أن الوزارة لاتعنى إظهار الاحترام لأشخاص الأمـــراء والمستشارين"

"وليس الغرض منها أن يتخذ الوزير لنفسه عبيـــــدا مـــن الشعب".

"واعلم أنه عندما يأتى إليك شاك من الوجه القبلى أو مـــن الوجه البحرى أو من أى بقعة فى البلاد، فعليك أن تطمئـــن إلى أن كل شىء يجرى وفق القانون وأن كل شىء قد تم حســـب العرف الجارى، فتعطى كل ذى حق حقه ..

"عامل من تعرفه، معاملتك من لاتعرفه"

* * *

ولقد سرت العدالة فى شرايين الحكم حتى لم يكن لحــــاكم أو موظف كبير ما يفخر به مثل أن يكون عادلا .

وتحفظ لنا الآثار نقوشا باقية على مقبرة"أميني" أحد الأمراء المصرين حوالى"٢٠٠٠" قبل الميلاد، يتحدث عن نفسه ومناقبـه فيقول :

"لا توجد بنت مواطن قد عبثت بـــها

"ولا أرملة عذبــتها .

"ولا فلاح طردته

"ولاراع أقصيته

"ولا يوجد بائس بين عشيرتى

"ولا جائع فى زمنى

"وعندما كانت تحل بالبلاد سنون مجدبة، كنت أحـــرث كل حقول المقاطعة، محافظا على حياة أهلها، ومقدمـــا لهـم الطعام حتى لايبقى فيهم جائع"

"وقد أعطيت الأرملة قبل ذات البعل

"ولم ـ أميز ـ الرجل العظيم، فوق الرجل الفقـــير، فى أى شئ أعطيت "

"وحتى حين أقبل الفيضان العظيم بالغلال والخيرات لم أجمع

المتأخر من الضرائب" ..!!

كم لهذه الكلمات من مذاق حلو، وروعة آخذة.. لكـــأن الضمير الإنسانى هو الذى يتحدث إلينا ويروى طرفا من أنبائه.

ويرسل"كاجمنى" إحدى صيحات الضمير:

ـ"أقم العدل لتوطد مكانك فوق الأرض"

"وواس الحزين، ولا تعذبن الأرملة".

ثم يعبر عن قانون القصاص تعبيرا تناهى فى الروعة والفطنـة فيقول :

"إن الروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه ".

"ولا تحيد فى مسيرها عن طريق أمسها" ..

أجل .

إن الروح لاتحيد فى مسيرها عن طريق أمسها، فهى تمشـــى فى ضياء عملها الطيب أو فى ظلمة عملها الخبيث .

وهى لن تجد غدا، إلاماقدمت اليوم.. ومصير كل إنســـان ليس سوى الحلقة الأخيرة فى سلسة أعماله ومساعيه وحياتـــه ـ فمن قدم المعدلة، وجد النجاة، ومن يـــزرع الريـــح، يحصـد العاصفة..

* * *

والمساواة بين الناس فى حقوق الحياة تمثل من ذلك اليـــوم البعيد الوجه الآخر للعدل .

ولقد أدرك الضمير منذ البدء أن لجميـــع النـــاس حقوقـــا متكافئة وأن كل تفاوت وتمايز تنشئهما المواضعــــات الباطلــة لحياتهم وغرورهم، فليسا سوى تحد لمشيئة خالقهم سبحانه .

ومن ثم كانت مصر كلها تردد أيـــام المملكـــة القديمـــة، والمملكة الوسطى هذه الكلمات وهى على لسان الإله.

ـ"لقد صنعت الرياح الأربع؛ لكى يتنفس . منها كل إنسان كزميله إبان حياته ..

"لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة؛ لكى يكون للفقير فيها حق كالعظيم "..

لقد صنعت كل إنسان مثل غيره من الناس".

* * *

ومن العدل يفجر الضمير كل فضائل الحياة؛ فالاســـتقامة والتواضع والصدق، والبر، والمحبة، والثقـــة بـــالنفس وبالغـــير، والشجاعة، والأمانة ..

كل هذه الأخلاقيات، سيمضى الضمـــير فى الإيعاز بـــها والحض عليها،باعتبارها أركان كل حياة عادلة .

ـ"إن الصدق جميل، وقيمته خالدة ..

"وقد تذهب المصائب بالثروة، لكن الصدق لايذهب بـــل يمكث ويبقى"

* * *

"لاتتكلمن مع إنسان كذبا؛ فذلك ما يمقته الله، ولا تفصلن قلبك عن لسانك حتى تكون كل طرقك ناجحة"

ـ"ول ظهرك لتلك الكلمات الكثيرة التى ينبو عنها السمع، فإن العصا المعوجة الملقاة فى الحقل يجعل منها الصـــانع ســوطا للحاكم،أما قطعة الخشب المستقيمة، فيصنع منها لوحا للكتابة".

* * *

ـ .." ومن فعل فاحشة فإن المرفأ يفلت منه، وأرضنا المبللـة تحمله بعيدا"

* * *

ـ "لاتفرحن من أجل ثروة أتت عن طريق السرقة"

* * *

ـ "كن ثابتا أمام غيرك من الناس؛ لأن الإنسان فى مأمن بين يدى الله"..

"وإن الممقوق من الله هو من يزور فى كلامه، لأن أكـــبر

شىء يكرهه الله هو النفاق"

* * *

ـ "لاترقد فى الليل متخوفا من الغد"..

"إذ لايعلم الإنسان ما سيكون عليه الغد..

"فالله دائما فى تدبيره..

"والإنسان فى ظنونه..

"كن حازما فى قلبك وثابتا فى عقلك"

* * *

ـ "لاتسخرن من أعمى، ولا تهزأن من قزم"..!!

* * *

ـ "لاتلعن أكبر منك سنا؛ لأنه شاهد الله قبلك"

* * *

ـ "لاتتكلن على مال إنسان آخر؛ ولا تقولن إن والد أمى له بيت. لأنه إذا جاءت القسمة مع إخواتك فإن نصيبك لن يكون إلا محزنا..!!

* * *

ـ "قدم قربانا لإلهك، ولا تتخط حدوده، ولا تسأل عن صورته، ولا تمش الخيلاء فى موكبه، واحترم اسمه؛ لأنه هو الذى

يعطى القوة جميع المخلوقات"

* * *

ـ"ضاعف مقدار الخبز الذى تعطيه أمك..

"واحملها كما حملتك ..

"لقد كان عبؤها ثقيلا فى حملك .

"وبعد أن ولدتك، حملتك مرة أخرى حول عنقها.

"وقد أعطتك ثديها ثلاث سنوات، ولم تشمئز من فضلاتك ولم تتبرم، ولم تقل: ماذا أفعل أنا..

"ولقد ألحقتك بالمدرسة عندما تعلمت الكتابة..

"وكانت تقف كل يوم هناك خارج المدرسة تنتظرك بالخبز والجعة ..

"فحينما تصبح شابا، وتتخذ لنفسك زوجة، وتستقر فى بيتك، اجعل نصب عينيك كيف وضعتك أمك وكيف ربتك بكل الوسائل.. فلا تجعلها تشكوك إلى الله وترفع إليه عويلها منك"..

* * *

هذه بعض سمات النموذج ومعالمه.. النموذج الذى كان الضمير ينشئه ليصوغ وفقه"الإنسان العادل" و"المواطن الصالح"

فى كون الله .

وبـــهذه المحاولة كان الضمير يكتشف عالم القيم، ويضمخ الحياة الإنسانية بأخلاقياتـــها التى تجعل لهـــا عبـــيرا وبهجـــة، وسنخطو الآن مع الضمير الإنسانى خطوة أخـــرى إلى الأمـــام لنبصر نفس محاولته فى بقاع أخرى من أرض النـــاس، ونمـــاذج أخرى بين صفوف البشر .

* * *

نحن الآن فى الهند.. الهند القديمة قبل الميلاد بألف عـــام وإن شئتم المزيد فألفى عام ..

وهذا الرنين العذب الآتى من بعيد، إنما هو صدى اللحـــن الباهر الذى يعزفه الضمير فى تلك البلاد الحافلة. إن ثمت مملكـــة عظمى للضمير.. الحكماء، والعبـــاد، والزاهـــدون، المتبتلـــون للحقيقة والخير ـ يقلبون وجوههم فى السماء وفى كـــل شـــىء باحثين عن الحق .

والضمير هناك يتابع رحلته ومسيره .

والألوهة، والخلود، ووحدة الكون، ومملكة الإنسان ـــ هى شغله الشاغل.

ما الله ، يومذاك فى الهند ..؟

ـ"الله كائن فى الأشياء كلها
"إنـــها صوره الكثيره
"وليس يعبد الله إلا من يخدم سائر الكائنات جميعا"

* * *

ما أروع هذا ..!!

إن الضمير ليكشف للألوهة أبعادا جديدة.. فإنــها بـــهذا المعنى ليست شيئا مجردا، ولا معزولا عــن العــالم فى صومعـة مقدسة.. إن الله بقدرته وأسراره فى الأشياء جميعا ..

والعبادة، لم تعد إذن مجرد قرابـــين ذبيحـــة تقـــدم لله فى الهياكل.. بل إنــها فى حقيقتها ـ خدمة شاملة للكائنات كلها.

ولكن ما الله أيضا..؟

نريد مزيدا من المعرفة به ..

وهنا يتحدث الضمير من خلال سفر"رج" أحـــد أســفار "الفيدا" فلنصغ إليه .

ـ" لم يكن فى الوجود موجود ولا عدم

"فتلك السماء الوضاءة لم تكن هناك.. وكـــانت بـــردة السماء منشورة فى الأعالى .

فماذا كان الغطاء إذن..؟ ماذا كان الموئل..؟ ماذا كـــان

المخبأ..؟

"أكانت هى المياه بـــهويها الذى ليس له قرار .؟

"ولم يكن ثمت موت، ومع هذا لم يكن هناك ما يوصـــف بالخلود ..

"ولم يكن فاصل بين النهار والليل .

"والواحد الأحد لم يكن هناك سواه

"ولم يوجد سواه منذ ذلك الحين حتى اليوم

"كانت هناك ظلمة

"وفى البدء كان كل شئ تحت ستار

"من ظلام عميق محيط بغير ضياء

"والجرثومة التى لم تزل كامنة فى اللحاء، وبرزت طبيعـــة واحدة من الحر الحرور .

"ثم أضيف إلى الطبيعة الحب ..

"وهو الينبوع الجديد للعقل .."

وتمضى هذه الحكمة اليانعة متسائلة، وفاحصة،حتى تقول:

"من ذا يعلم السر الدفين..؟

"من ذا أعلنه هنا ..؟

"من أين..؟ من أين جاءت هذه الكائنات ..؟"

ثم يشير إلى الآلهة الكثيرة التى اتخذها الناس عبر الأجيـــال والأزمان رمزا للألوهة ، وللقوة الجليلة التى تبعث الحياة فى كـــل حى، فيقول عن هذه الآلهة الرمزية :

"إن الآلهة نفسها، جاءت متأخرة فى مراحل الوجود.

"فمن ذا يعلم، كيف جاء هذا الوجود ..؟؟

ثم يعلو رنين الحكمة،ويتصدر الضمير العليم موكبها فيعلن:

"إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم .

"سواء خلقه بإرادته أم صدر عنه وهو ساكن

"لهو ربنا الأعلى فى السماوات العلى" ..

* * *

هذا نمو واضح فى إدراك الألوهة.. ترى نمو الضمير هـذا؟ أم نمو الفكر الذى يعبر عن الضمير؟ أم نــموهما معا ؟

إن الفوارق تستبين الآن بين الآلهة، والألوهة.. وبين الإلــه والله ..

فإذا كان الناس من قبل قد اتخذوا لأنفسهم آلهة، فكـــان لكل بلد إله، وأحيانا لكل عائلة إله ــ مقدسين بــهذا الألوهــة نفسها كقوة وحقيقـــة.. فقـــد آن لهـــم أن يعلمـــوا أن "الله" هو"جماع" هذه الحقيقة، وأن "الله" الذى صدر عنه كل مخلــوق

وكائن، هو الرب الأعلى، وأن "الله" بقدرته وعلمه محيط بكل شئ ..

وسيعبر الفكر عن هذا فى تنوع ورمزية تقوده كعادته نزعة الافتراض والمبالغة، وهنا نلتقى به يسمى الله "أتمان"، ويرى فى"أتمان" روح العالم.. وهو منبث فى كل شئ.. وفينا نحن بنى الإنسان بصورة خاصة .

فأنت إله.. أنت "أتمان" بقدر ما تحرز من تفوق وصفاء والآن فلننظر.. إن تلميذا هنديا يتقدم من معلمه ويسأله عن جوهر الكائنات: أين هو .؟

ويدور هذا الحوار :

المعلم : هات لى تينة من ذلك التين ياولدى .

التلميذ: هذه هى يامولاى .

ـ اقسمها نصفين.

ـ قد قسمتها يامولاى .

ـ ماذا ترى فيها ..؟

ـ أرى حبيبات دقاق يامولاى .

ـ تفضل واقسم حبيبة منها نصفين ياولدى .

ـ قد فعلت يامولاى .

ـ ماذا ترى هناك ..؟

لست أرى شيئا على الإطلاق يامولاى .

وهنا يجيبه المعلم :

حقا ياولدى العزيز، من هذا الجوهر الذى لاتستطيع رؤيته، نبتت شجرة التين العظيمة .

"وإن روح العالم ـ ياولدى ـ لهو الجوهر الذى ليس فى دقته جوهر سواه .

"إنه الحق.. إنه"أتمان".. إنه أنت ياولدى العزيز".!

* * *

وسوف يفسح الضمير مجالا لمن يشك ويتساءل، فالشـــك أحد وسائل كشفه ويقينه .

وإنه إذ يسمع قولهم، ليجيبهم على لسان "براهما".

"إنهم ليخطئون الحساب، من يخرجوننى من الحساب"..

إن الضمير الإنسانى فى جولته هذه، فى الهند القديمـــة قــد أعطى البشرية جرعة شباب طويلة ومباركة .

وفى حكمة لا تغيض عذوبتها غنـــى للإخـــاء، والحـــب، والرحمة أعذب ألحانه .

وها هو ذا يتألق تألقه الباهر الودود فى شخص"بوذا".

فحين يرى الضمير كثيرا من الكهنة يتخذون الدين والعبادة سبيلا لإشاعة الكآبة فى الحياة، ولجعل تكاليفها الفاضلة أعباء قاسية تنوء بحملها الأفئدة، يلقى يومئذ فى روع واحد من الأبرار كلمته الجديدة التى يحيى بها روح الإنسان .

هنالك ينهض "بوذا" مزودا بخبرة عظيمة عن بؤس الإنسان، ومهيأ بطاقات ريانة ستضع نفسها فى خدمة كل ما هو إنسانى وخير .

ولسوف يبدأ فى تعبيره عن مشيئة الضمير الإنسانى، بالنهى عن الفتك بالحياة .

ترى كيف يكون سبيله لهذا، ومنهاجه .؟

إنه ذلك السهل الممتنع .. الحب..!!

فالحب والصفح الجميل ضرورة الحياة لكى تدوم الحياة ..

ألا فليشد "بوذا" بتعاليمه الخالدة .

أو بتعبير أصح، ليشد الضمير من خلال بوذا .

ـ"إذا أساء إلى إنسان عن حمق؛ فإن سبيلى لوقاية نفسى من إساءته، هو أن أحبه حبا خالصا ..

"ولئن زادنى إساءة ، لأزيدنه خيرا .."

* * *

هذه مشيئة الضمير إذن، الارتفاع بالعلاقات الإنسانية فوق مستوى الكراهية والثأر..وتحريرها من سيطرة الشر عليها.

ولسوف يكون بوذا يومئذ خير ممثل للضمير؛ لا فى الدعـوة إلى هذه الحقيقة فحسب. بل وفى السير بسلوكه وفقها.

فذات يوم يأتيه أحد أولئك الذين يمارســون الســفاهة فى شره كبير، ويتطاول على "بوذا" ويمعن فى الإساءة إليه .

فيسأله بوذا :

ـ"أخبرنى يابنى..

"إذا رفض إنسان أن يتقبل منحة قدمت إليه.. فلمن تـــرد هذه المنحة ..؟

ويجيب الرجل:"إنما ترد إلى صاحبـــها ..

وهنا يقول "بوذا" :

ـ"إنى إذن يابنى أرفض قبول إهانتك، وألتمـــس منـــك أن تحتفظ بـــها لنفسك.

ويسعى الضمير لتحرير العبادة من كل ما ينهش روحــــها ويحرمها السمو الخليق بـــها.. وينشئ لكل إنسان معبـــده فى ضميره وقلبه .

وها هو ذا"بوذا" يقول لبرهمى جاء يستأذنه فى الســـفر إلى

"جايا" ليستحم فى مائها .

ـ"ولماذا السفر إلى"جايا" أيها البرهمى ..؟

"كن رحيما بالكائنات جميعا ..

"ولا تنطق كذبا ..

"ولا تقتل روحا .

"ولا تأخذ مالم يعط لك ..

"وعش آمنا فى حدود إنكار ذاتك ..

"وساعتئذ ، لن تكون بحاجة إلى السفر إلى"جايا"

"إن كل ماء يكون عندئذ"جايا" ..!!"

* * *

• ـ والمساواة حقيقة لايأتيها ريب، ولن يكون ثمت حب، ولا إخاء، ولادين ما بقى الناس سادة وعبيدا..

ـ"انتشروا فى كل الأرض ..

"وبشروا بهذه التعاليم ...

"قولوا للناس: إن الفقراء، والمساكين، والأغنياء والصفـوة ـ كلهم سواء ".

هكذا قال بوذا لتلامذته .

• ـ وحرية الضمير، التى تجعل الناس مبدعين لامقلديـــن..

وأشخاصا حية لاظلالا ولا دمى، تجد يومذاك فى بوذا محاميـها القدير .

فعلى كل فرد من الناس أن يهيىء نفسه ليمتلك مقـــادير حياته وأزمة مصيره .

وبم يهيىء نفسه ..؟ بالمعرفة ..

ـ "إن كل من صار لنفسه مصباحا يهدى ، وملاذا يؤوى، فلن يلتمس لنفسه من غير نفسه مأوى .

"وسيستمسك بالحق مصباحا، فلا يطلب من غير نفســـه ملاذا .

"أمثال هؤلاء. هم الذين يبلغون الذرى العالية ..

"شريطة أن يكون لهم بالمعرفة شغف عظيم .."

* * *

إن تحرير الضمير الفردى من التبعية العمياء المتقامئة وتحريره من الكراهية والضغن، لهو اللحن المجيد الذى يغنيــــه الضمـــير الإنسانى فى تلك الحقبة وتلك البقاع .

ولقد غناه من قبل على نحو سريع فى مصر القديمة، وبابل أما اليوم فإنه يفرد له وقته ومعارفه ".

فبينما كان فى الهند يحمل عصا المايســـترو أمـــام بـــوذا،

وحكماء الهند الكثيرين، لينشدوا ويغنوا لحرية الضمير، والإخاء والمحبة ... كان كذلك يفعل، فى الصين القديمة مع "كونفشيوس"،و"لودزه" وغيرهما من حكماء الصين .

وكانت آفاق الصين تردد هذه الآيات :

"إذا لم يقاتل الناس فإن أحدا على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ..

"أنا خير للأخيار، وخير لغير الأخيار؛ وبهذا يصير الناس كلهم أخيارا ..

"أنا مخلص للمخلصين، ومخلص لغير المخلصين، وبهذا أجعل الناس كلهم مخلصين" .

هذا هو الحب العميق للناس جميعا محسنهم ومسيئهم.

وهذا هو البلسم الذى يشفى القلوب من الكراهية والحقد.

ولكى يصبح الحب على هذا النحو واقعا إنسانيا، وليس مجرد أمنية طيف، فإنه ينبغى أن يكون هناك تواص بالحق والمعروف .

ويوضح الفيلسوف الصينى "مودى" مشيئة الضمير فى كلماته هذه .

ـ"يحب الناس كلهم بعضهم بعضا.

"فلا يفترس أقوياؤهم ضعفاءهم.

"ولا يزدرى أغنياؤهم فقراءهم.

"ولا يسفه كبراؤهم صغارهم.

"ولا يخدع الماكرون منهم السذج".

وفى الشئون الدولية ترجم الضمير الإنســـانى الحـــب إلى مبدأين أساسيين :

أولهما ـ نبذ الأنانية وشهوة الفتح .

ثانيهما ـ نـــزع السلاح من كل العالم .

ولقد كان الفيلسوف الصينى"مودى" وتلميذاه"سونج بنج" و"جونج سون لنج" أصحاب دعوة هائلة فى عصرهما لنـــــزع السلاح مما جعل الإمبراطورية الصينية تكافح فى عنف دعوتهـــم، وتحرق آخر الأمر مؤلفاتـــهم .

ولكن على الرغم من ذلك، فإن الضمير الإنسانى قد رفـــع فى ذلك الحين البعيد راية جديدة اسمها "نـــزع السلاح" وستظل تخفق عبر القرون.. تنادى الناس وتذكر الأجيال بالمرفأ الوحيـــد لحياتهم.

أجل.. فقبل الميلاد بثلاثمائة عام، أى منذ أكثر من ألفـــى عام جمع الضمير الإنسانى كل خبراته عن الإخاء العالمى وصاغها

فى هاتين الكلمتين ـ نــزع السلاح ـ ولسوف نرى مثابرته على تحقيق هذا المبدأ منذ الأمس البعيد حتى يومنا الماثل.

* * *

وللاعتداد بالذات، وتحرير الضمير الفردى من الرضـــوخ نصيب كبيرفى المحاولة الدائبة :

ـ"إذا لم يستطع المرء أن يقول: هذا رأيى فإنى لاأستطيع أن أسدى إليه نفعا..

هكذا كان يقول"كونفشيوس" ثم يستطرد قائلا:

ـ"وإنى لاأفتح باب الحق لمن لايحرص على معرفته، ولاأقدم العون لهذا الذى يعجز عن الإفصاح عما فى نفسه"

وفى هذا الفكر الثاقب الذى يعبر عن الضمير الإنسانى تعبيرا سديدا يبلغ الإصرار على حرية الضمير مداه .

وحرية الضمير تتطلب المعرفة المستمرة، فالذى يشغله مـلء بطنه بالطعام عن ملء عقله بالمعرفة، ليس إنسانا وإنما هو"وباء"

كما أن حرية الضمير تعنى الأمانة فى التفكير، والإخـــلاص فى نشدان الحق.

وما لم تتوفر هذه الضرورة الإنسانية، فإن الفساد ـ كمـــا يرى كونفشيوس يأخذ بخناق العالم كله.

واستمعوا له؛ وهو يقول منذ أكثر من ألفى عام:

"إن العالم فى حرب وفوضى؛ لأن الدول التى تحكمه فاسدة الحكم ..

"وهى فاسدة الحكم؛ لأن نظام الأسرة فاسد..

والأسرة فاسدة ؛ لأن الفرد مضمحل .

"وهو كذلك، لأنه عبد أطماعه وهواه ..

"وهو عبد أطماعه وهواه؛ لأنه لايعرف الحقيقة..

"وهولايعرف الحقيقة، لأنه غير مخلص فى تفكيره.

"فالأمانة فى التفكير، والإخلاص فى نشدان الحق هما بدايـة الطريق"..

قد يبدو فى هذا التسلسل، أو هذا السلم المنطقــى الــذى صاغه"كنفشيوس"شئ من التكلف. بيد أن النتيجة النهائية الــتى جعلها بداية الطريق، والتى هى نشدان الحقيقة فى أمانة وإخلاص لامبالغة فيها.

* * *

وفى الصين كذلك أيامئذ، تستقر عقيدة الألوهيــة علــى الحق، أو على ما هو أقرب إلى الحق منه إلى الأسطورة، فبعـد أن كان الإله الأكبر للخليقة هى السماء، يعبدها الناس؛ ويقدمــون

لها القرابين ـ أصبح الإله هو "الشانج تى"، أى القــوة العليـا المسيطرة بعلمها وقدرتها على العالم كله .

لقد حقق الضمير الإنسانى هنا على الوثنية نفس الانتصـار الذى حققه فى بقاع أخرى.

بيد أن انتصاره هذا سيظل شديد الحاجة إلى دعم كبير لـن تواتيه فرصته إلا فى النبوات .

وكانت "وحدة الكون" رؤيا تلك العصــور فى الصـين فالسماء والأرض والبشر ـ كل أولئك يسيرون وفق قانون واحد وقواعد واحدة .

كما كان"الخلود" رؤيا واضحة لديهم، حتى لقد اختـار تفكيرهم يومئذ ـ عبادة الأسلاف ـ وتقديم قرابين يومية للموتى، باعتبارهم أحياء خالدين. بل ويملكون لذويهم من الأحياء نفعـا وضرا.

* * *

فى تلك العصور الخوالى، كان الضمير يغمــر بإشـعاعاته وإلحاحاته بلدا آخر اسمه"أثينا"

وعن طريق الفلسفة الحرة بث الضمير الإنسانى رؤاه .

وهناك نلتقى به معنيا بتحويل الصداقة البشرية للكــون إلى

نظرية عملية تهدف إلى كشف قوانين هذه الصداقة والزمالة.

إن عصر الإنسان يوشك أن يقبل، وعلى الإنسان أن يتـهيأ لا ستقباله.

عليه أن يدفن آخر مخاوفه من المجهول ، وذلك بمزيد مـــن التعرف إليه .

وهكذا تبدأ المعرفة بمعناها العلمى، فتأخذ مكانها الســامق بين القيم الإنسانية .

وسيكون شعاره فى هذا الشوط: اعرف ..

ـ اعرف الكون الذى تعيش فيه ..

ـ اعرف نفسك ..

ـ اعرف كيف تعرف ..

ـ أجل.. إن المعرفة ليست من مملكة العقل، بقدر ماهى من مملكة الضمير .

فإذا ما استنفر الحدس الإنسانى قواه فى أثينــا يومــذاك، فاكتشف "أنكساجوراس" أن الشمس كرة ملتهبة أكــبر مــن اسبرطة، وأن القمر كرة من تراب.. لايضئ وإنما تنعكس عليــه أضواء الشمس.. وأن كسوف الشمس يحدث بوقوع القمــر فى دورانه بينها وبين الأرض، كما أن خسوف القمر يحدث حــين

تقع الأرض فى دورانــها بينه وبين الشمس ..

وإذا جاء "طاليس" ليقول: إن النبات والحيــوان يغتذيــان بالرطوبة، ومبدأ الرطوبة الماء.. وما يتغذى به الشئ فمنه يتكون، إذن فمبدأ الحياة الماء .

وإذا جاء "هرقليطس" ليعلن أن"التغير هو صراع الأضــداد ليأخذ بعضها مكان بعض إذ الشقاق أبو الأشــياء كلــها"أى واضعا بذلك مبدأ"الديالكتيك" الذى ستبنى عليه فيما بعد فلسفة هيجل ، وماركس.

وإذا جاء"ديقريطس" و"أبيقور"و"ألفيبوس" ليحدسوا بــأن الكون يتألف من ذرات تناهت فى الدقة والقوة معا .

إذا حدث كل هذا يومئذ، فليس ذلك من سمات الذكــاء الإنسانى بقدر ماهو أولا وآخرا من سمات القيم والفضائل .

فالضمير الإنسانى الذى غايته إنشاء المدينة الفاضلة للإنسان فوق هذه الأرض، يحس ويعى أن نجاح محاولاته يتوقف علــى معرفة الإنسان لأسرار الطبيعة والكون، وتطويع قوى الطبيعــة لحاجاته.

وحين تتحول المعرفة العلمية إلى حضارة تنــهض بــها وعليها كل مجالات الحياة، فإن الكفاح الأخلاقى للضمير يــزداد

بهذا قربا من فوزه وأهدافه.

لقد وعى الضمير منذ فجـــره وصباحـــه، أن الانطـــلاق الروحى للبشرية توأم لتقدمها المادى، وأن كلا منهما يأخذ مـــن أخيه ويصب فيه، وأن أى تنافر سلبى يغشى علاقاتهما، فسيكون مرده ومأتاه قصوره فى وسائل الإنسان نفسه .

فحفاوة الضمير بالمعرفة فى كل أنواعها، حفاوة بـــالمعراج الأخلاقى نفسه الذى يشيده الضمير للإنسان.

من أجل هذا كانت المعرفة كقيمة تتجلى فى إلحاحاته منـــذ البدء. وإن كانت ستبلغ فى عقول فلاسفة أثينا والهنـــد المـــدى الذى يجعل منها"موصلا جيدا" بين التراث الإنسانى الحافل، وبين عصر العقل الذى سنلتقى به بعد حين .

ونقول: فلاسفة الهند، لأن الهند القديمة شهدت من ذلـــك الطراز أروعه .

فقد كان هناك "كانادا" الذى نـــادى بأن"العـــالم ملـــىء بالأشياء التى ليست سوى تركيبات مختلفة من الذرات تشـــكلت فى أشكال مختلفة".

بل ويذهب إلى أبعد من هذا فيعلن:"أن أشكال المادة يمكـــن أن تتحول وتتغير، أما الذرات ذاتها فباقية لافناء لها".

وكان هناك "شانكارا" الذى سبق الفيلسوف الفرنسى "كانت" بألف عام ـ وكان ـ كما يرى ديورانت ـ الممهد الحقيقى لفلسفته .

* * *

ونعود إلى أثينا حيث يتابع الضمير دعم المعرفة كقيمة من قيم الحياة العليا.

والآن، فالإنسان مدعو لأن يحرر المعرفة نفسها من كل ما ينحرف بها عن الحقيقة.. أى يعرف كيف يعرف .

ومدعو لأن يحرر نفسه من كل ما يشيع الشك فى قدرتها على التفوق وصنع المصير ـ أى يعرف نفسه، وسيختار الضمير الإنسانى لهذا الغرض لسانه المعبر، وابنه البار"سقراط"..

هذا الذى سأل أباه فى صباه عن سر المهارة التى يحرك بها "أزميله" فى الحجر الصلد، فينحت منه أسدا كأنه حى يتفجر حياة، فأجابه أبوه :

ـ"إنى أرى الأسد كامنا فى الحجر، أشعر كما لو كان رابضا هناك تحت سطحه، وما أفعل إلا أن أطلق بحركة الأزميل سراحه"..

والذى سأل أمه وكانت"قابلة" عن سر مهارتها فى إيلاد

النساء فأجابته:

"إنى فى الحق لاأصنع شيئا سوى أنى أساعد الطفل الرابـض فى الرحم على الانطلاق" .

إن الفتى الذى استوعب هاتين الإجـابتين وحـرك بهما استعداده العظيم، لخير من يستطيع أن يعلى صرح المعرفة علـى أساس وطيد من حرية الضمير.. وسيمضى على نهـج أبويـه مكرسا حياته لمساعدة الأفكـار والحقـائق والفضـائل علـى الانطلاق.

والحق أن هذا الرجل بشعاره هذا "اعرف نفسك" سيكون المؤذن الصادح لعصر العقل والإنسان.. هـذا العصـر الـذى سيجىء بعد ذلك بمئات الأعوام، والذى سيكون ثمرة حشد مـن الأفذاذ والرواد؛ ومع هذا سيظل مدينا لسقراط بالشىء الكثير.

إن الضمير الإنسانى يريد من الناس أن يقدسـوا الحقيقـة ويجعلوا البحث عنها كالعبادة .

ولقد كثرت الفلسفات والحكـم. وتـاهت الحقيقـة فى الزحام.

من يجىء بـها من ذلك الغمار ؟

إنه العقل الإنسانى إذا أحسن استعماله.

فليعلمنا سقراط كيف نستعمل عقولنا..

إنما تفلت الحقيقة منا فى زحام المترادفات، والكلمات التى بوعد بينها وبين دلالاتها.. فإذا عادت إلى الأسماء مسمياتها، وإلى الكلمات دلالاتها، فإن الحق يصبح بين أيدينا.

حين يدعو الضمير إلى الخير، والعدل، والحب، والجمال، والصدق، والعفة.

وحين ينهى عن الكذب، والجبن، والشر، والظلم، فماذا يعنى الضمير تماما بهذه الأخلاقيات...؟

إن تحديد الفكرة ـ لفظا ودلالة، هو وحده الذى يساعدنا على أن نعرف .

وسقراط يأخذ على عاتقه مسئولية هذه المحاولة النبيلة .

عندما تنفرج شفتا متحدث عن كلمة مثل"أحسن" أو "قبيح" فيجب أن تنطلق الكلمة كالرصاصة المقذوفة فى حذق نحو معناها الأوحد حتى لاتضطرب المفاهيم وتتلعثم الكلمات..

ـ"حين قلت يا إريستون إنك سوف تخلف وطن آبائك أحسن مما وجدته، حسبت أننى أدركت معناها كل الإدراك..

إريستون ـ"وهل وجدت صعوبة فى هذا ياسقراط..؟

سقراط ـ أجل، فماذا تعنى بكلمة"أحسن" ياإريستون؟

ـ"الأمر هين ياسقراط، فحين أقول أنــــى ســـأترك أثينـــا "أحسن"مما هى، فأنا أعنى أننى سأتركها"أكبر" مما هى.

ـ دعنا إذن نفكر قليلا ياإريستون، فأنت لاشك تعـــــرف "كليونيمس"و"أفاجون"الذى فـــاز فى الأوليمبيـــاد ـ فأيـــهما "أكبر".؟

ـكليونيمس طبعا ياسقراط

ـ وأيهما فى الرياضة "أحسن "..؟

ـ أفاجون

إذن يا إريستون فـــ"الأحسن" ليس هو"الأكبر"... ويعـــود ـ إريستون فيقول :

ـ لا تؤاخذنى هكذا بحرفية القول ياسقراط، فإنمـــا أعـــنى الأحسن هنا، أننى سأعمل حتى أترك أثينا أكثر قدرة علـــــى أن تفعل ما تريد لنفسها ومصيرها ...

ويبدو سقراط، وكأنه يعتذر:

ها.. فهمت الآن يا إريستون، ودعنا نفحص هذه أيضا "أيهما أفضل . الشجاع، أم الجبان..؟

ـ الشجاع ياسقراط

ـ وأين يمتاز الشجاع من الجبان..؟

ـ فى ساحة القتال طبعا .

ـ ولكن يا إريستون أليس فى ساحة القتال أشياء أخرى غير الصمود يستطيع الجندى فعلها ـ مثل أن يلقى سلاحه ويهرب..؟

ـ أجل ياسقراط، ولكن الجبان وحده هو الذى يصنع هذا.

حقا ياإريستون ـ الجبان وحده هو الذى يستطيع أن يختار بين الصمود والهرب ـ أما الشجاع فلايملك فى المعركة إلا أداء عمل واحد، هو تنفيذ أمر قائده ..

"والآن، انظر ياإريستون.... إذا كان"الأحسن" فى رأيك هو القدرة على فعل مانشاء، ألا يكون الجبان مثلنا هذا"أحسن" من الشجاع لأنه يستطيع أن يفعل مايشاء وهو الهرب ..؟؟!

"إن القدرة على أن يفعل المرء ما يشاء ليست هى "الأحسن" فلنبحث إذن عن معيار آخر للأحسن يا إريستون"..

هكذا، وعلى هذا النسق الباهر كان"سقراط"يمعن ويغوص وراء الدلالات الخاصة.. وما كان ذلك منه سفسطة أو لغوا، فالسفسطة مجرد تلاعب بالحوار لاهدف له .

أما سقراط فكان يرىأن فى كل كلمة جزءا من الحقيقة، إذا عاوناه على الانطلاق،كون مع الأجزاء الأخرى حقيقة كاملة.

هذا بدء المعرفة ـ الكلمات الواضحة المستقيمة .

"ـ لأن الكلمات الكاذبة ليست متنافرة فى ذاتها فحسـب ـ ياإقريطون ـ إنما هى أيضا تبعث الشر فى نفوسنا".

وهذه العبارة الأخيرة تكشف عن أغراض المعرفــة الـتى يريدها الضمير الإنسانى، فهو لايريد المعرفة لتكديسها، بل ليصل الجنس البشرى بـها إلى الخير العام .

إن اكتشاف"الخير" وامتلاكه هما أسمى تبعات الإنسان.

وقد تكون كلمة"الخير" قد فقـدت فى ترجمـة القـول والاستعمال بعض قيمتها وحقيقتها ـ بيد أن"الخير" فى جوهـره سيظل دائما الحياة" فى جوهرها ..

وإذن فربط المعرفة بالخير، من أروع هتافات الضمير.

ذلك أن المعرفة بلا ضمير، قد تكون أقـرب الطـرق إلى الكارثة... أما المعرفة النابضة بحب الخير وإرادته فتلـك هـى السبيل الأمثل للإنسان .

وما دام الإنسان هو الذى يمسك بالدفة فى يمينه فعليـه أن يؤثر المسالك المستقيمة حتى لايفلت منه مرفأه وأمنه ..

وسبيل ذلك أن يعرف إرادة الصمود الكامنة فيه. ويشـد زنادها إلى أقصاه ..

وهنا يقدم الضمير نداءه الآخر.

"اعرف نفسك"

ـ"إن الطبيب يعرف ما ينفع العين، ومدرب الجياد يعـــرف ما ينفع الخيل.. ولكن من منا يعرف ما ينفع الروح؟.. هذا هـــو السؤال الحق "..

هكذا قال سقراط:

ـ من منا يعرف ما ينفع الروح..؟ هذا هو السؤال الحق..

ولسوف يجيب"سقراط" على قدر جهده.. وســـــيتحدث طويلا عما يريده الإله من الناس... وعـــن الـــروح وخلودهـــا ومعراج سموها .

وعلى الرغم مما سيخلفه من ضياء ومعرفة، فإن الضمــــــير الإنسانى لايبلغ فى سقراط أوج أمره إلا حين يقرر أن يجعل مـــن ختام حياته درسا ـ أى درس ـ فى أن المعرفة لاتجد نفســها إلا فى الشجاعة العادلة والفائقة .

ـ"لو قلتم لى إننا سنطلق سراحك فى هذه المرة ياســـقراط، شريطة أن تكف عن البحث والتفكير لأجبتكم قـــائلا: أيـــها الأثينيـــون، إنى أحبكم وأمجدكم،ولكنى أطيـــع الله أكـــثر ممـــا أطيعكم.

"من أجل هذا، لن أمسك عن البحث والتفكير ما دمـــت حيا".

"وسأظل أسائل كل من ألقاه:مالى أراك ياصاحبى تعنــــى بجمع المال وإحراز الجاه والشهرة، ولا تنشد من الحكمة والحـــق وتهذيب النفس إلا أقلها، ألا يخجلك هذا ..؟

"لقد حكمتم بموتى، أليس كذلك..؟

"ألا إنه إذا كان الموت سينقلنى إلى حياة أخرى ألتقى فيــها بسائر أبناء الله الذين سبقونا إلى هناك، والذين عمروا حيـــاتهم بالمعرفة والفضيلة؛ فذرونى أمت مرة ومرة، ودعـــونى أبتســم للموت وأتهلل.. فلست أرتاب أبدا فى أن الموت مع الحرية خــير وأبقى.."

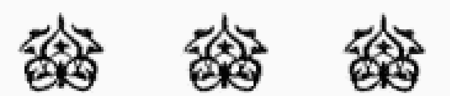
* * *

ويموت سقراط

ويبلغ"الضمير الإنسانى"بموت ابنه البار هـــذا،أوج الـــولاء للحق والخير.

وبـــهذا الموت تتم"اللوحة"..تتم "القدوة"التى سواها بارئها فى أحسن تقويم،ويرفع الضمير للأجيال ـــ جميع الأجيال وثيقـــة من أعظم وثائق الشرف الإنسانى.

ويُبلغ عصر "الرؤيا" ذروته وأوْجَه بهذا الموقف السُّـــــقراطِيِّ العظيم .



الفصل الثانى



فى صُحبَة النُّبُوَّة









أين كان الأنبياء والمرسلون خِلال هذه الحركـــة، وتلـــك القرون..؟

كانوا هناك لاريب .

بل لعل الضمير الإنسانى فى رُؤاه التى صادفها التوفيق إبّـــان نشأته الأولى لم يكن يُعْوِزُه شىء مِثلما كانَ يُعْوِزُه ما يَحمـــلُ أنبياء الله من هُدًى ويقين .

ففى تلك العصور الخوالى كان هناك مِنَ المرسلين مَن حملوا راية الحقيقة والخير...﴿منهم مَن قصصنا عليك ومِنـــهم مَـــن لم نَقْصُص عليك﴾ .

ولا ريب فى أن دورهم فى تنمية الضمـــير كـــان بـــاهرًا وعظيمًا.

وفى قضية الألوهية بالذات، حيث ارتفعت بين صفـــوف

البشرية الأولى الهتافات الصادحة بإله واحد لاشريك له، كــــان مصدر هذه الهتافات وهذه الدعوة أفئدة الذين آثرهم الله ليبلغــوا كلمته وهَدْيَه للناس.

ففى الزمان القديم كان هناك نوح، وإبراهيــــم، وهــود، وصالح .

وكانت دعوتـــهم المتساوقة والمتحاورة تُرسل أصداءهــا فى كل أنحاء هذه المنطقة التى نسميها اليوم بالشرق العربى أو الشرق الأوسط.

وكان جوهر رسالاتهم الإيمان بالله الواحد الأحد، والتوسُّل إليه بالأعمال الصالحات .

كما كان هناك بعد هؤلاء، وقبل الميلاد بقُرابة ثلاثــة آلاف عام، يوسف وموسى وهارون،يدعون إلى الله الذى لاشريك له.

والآن، فإن علينا أن نتابع حركة الضمير فى ظلال النُّبـــوَّة لنرى كيف أفاءت عليه كلمــــات الله خــير أمــداد حياتــه، وانطلاقاته.

وطبيعى أننا لن نستوعب فى حديثنا هذا جميــــع الأنبيــاء والمرسلين.. إنما سنكتفى منهم ـــ عليهم السلام جميعاً ـــ بنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد يلتقى فيهم، ويجتمع لديــهم

كل ما تفرَّق فى إخوانـــهم المرسلين .

فإذا بدأنا بـــ"نوح"عليه سلام الله، فلنبدأ بما تَعينه قصته من تفاؤل عظيم بمستقبل الإنسان وإعلان سيادته على كوكبه .

فبعد كارثة الطوفان الماحقة، لا يخرج الضمير الإنسانى منها فاقد الرجاء محنى الجبهة، بل يتلقى من فوره هذه البشرى الـــتى يحدثنا عنها فيما بعد "سفر التكوين" .

ـ".. وبارك الله نوحًا وبنيه، وقال لهم: أثمـــروا، وأكـــثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانـــات الأرض، وكل طيور السماء".

إنه فى الوقت الرهيب الذى يُظن فيه أن الحياة قد انتـــهت، يومِض من الغيب هذا الضياء المُرتجَى، كاشفًا عن عظمة الأيـــام الواعدة المقبلة لهذا الجنس البشرى الذى كان يُظن أن الطوفـــان قد أذاع نعيهَ وطوَى أيامه .

وفى ذلك الحين كذلك، يتلقى الضمير وصية الله بالإنســـان وتمجيده إياه .

ـ"سافِكُ دم الإنسان، بالإنسان يُسْفَكُ دمُه، لأن الله علـــى صورته عَمِل الإنسان".

هنا دعوة إلى حق الله فى التقديس والإجلال.

وحق الإنسان، وحق الحياة أيضًا، ولكن من غير أن تذيب التخوم الفاصلة بين الله والإنسان، ومن غير أن يصير الإنسان هو الله.."لأن الله على صورته عمل الإنسان"..

فمهما يكن من شأن الإنسان إذن.. هذا الذى على صُورة الله سُوِّى وخُلق،فإنه لن يبتعد كثيراً عن حقيقة أنه مخلوق لله..

ولسوف يركِّز"نوح" على هذا الاتجاه فينادى قومه قائلا، ومُتسائلا:

﴿مالكم لاتَرْجُون لله وقارًا﴾..؟

{وقد خلقكم أطوارًا﴾ ..

﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقًا، وجعل القمر فيهن نورًا، وجعل الشمس سراجًا﴾..؟

ومع "نوح" عليه السلام، يشهد الضمير الإنسانى إحدى معاركه الشاهقة لتحرير الإنسان من أوهام الوثنية والشِّرك وإنهاء تكبيل الرُّؤَى البشرية بالأذناب الملتوية لتلك الأصنام المنحوتة من حجارة، والسَّاجية على الأرض فى عجز وبلاهة..

﴿ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾.

﴿ياقوم إنى لكم نذير مبين﴾

﴿أن اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون﴾.

ومن"نوح" يتعلم الضمير الشجاعة فى الحق .

﴿يا قوم إن كان كبُر عليكم مَقامى وتذكيرى بآيــات الله، فعلى الله توكلت، فأجْمِعُوا أمركم وشركاءكم﴾ ..

واختيار الحق فى تجرُّد وتبتُّل وذِمَّة، ثم الدعوة إليه ورفــــع رايته دون أن يكون ثمت أى مطمع، أو غرض، أمـــــر يحـــرص الضمير الإنسانى على تنمية موارده.. وهاهو ذا نوح يلتزم هــــذا الموقف فى صمود وجلال.

﴿فإن توليْتم، فما سألتكم من أجر.. إن أَجْرِىَ إلا علــــى الله، وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾.

ـ ﴿ياقوم .لا أسألكم عليه مالا.إن أجرى إلا على الله﴾.

وحرية الضمير أثمن ممتلكات البشر، وأساس هذه الحرية هو الاقتناع .

﴿يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيِّنة من ربى، وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيتْ عليكم، أنُلْزِمُكمُوها وأنتم لها كارهون﴾؟؟

والمساواة أمام الله، وأمام القانون، مَحتومة ومقدسة.

ومن نوح تلقى الضمير أروع دروسها.. فحين يحلُّ بعُصـاة قومه يوم القصاص يرسل ابتهالاته الضارعة المُلِحة.. إلى الله كــى يدَع له ابنه، ويغفر له عِصيَانَه.

﴿..ربِّ إن ابنى من أهلى، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين﴾..

﴿قال يانوح إنه ليس من أهْلِك.. إنه عَمَل غَيرُ صالح، فلا تسألْنِ ماليس لك به علَم،إنى أعِظك أن تكون من الجاهلين﴾..

﴿قال ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألَك لى مالَيْس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين..﴾

وحين يسأله قومه أن يُبْعد عنه الفقراء االذين آمنوا معه يسألهم. لماذا يفعل ذلك ..؟

وهل هو إلا عَبْد لله مثلما هم عِبادٌ له ..؟

﴿ولا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنى ملَك..

﴿ولا أقول لِلّذين تزدرى أعينكمُ لن يُؤتيهُم الله خيرًا الله أعلم بما فى أنفسهم، إنى إذن لمن الظالمين﴾ .

لقد انتعش الضمير الإنسانى وارتوى بهذه التعاليم، وتَلقّى من الله مع نبيه نُوح كلمات أضاءت طريقه وزكّت رُشده ﴿سلام على نوح فى العالمين﴾.

* * *

ويجىء أبو الأنبياء"إبراهيم" ويقطع الضمير معه هجرة من

أعظم هِجْراته ..

إن عقول الناس فى "بابل" قد شوَّهت رُؤى الضمير؛ فعلى الرغم من إيمانهم بالألوهة، ذهبوا يتصورونها فى أشكال وأوثان.

وإنهم ليتخذون من قوى الطبيعة آلهة... هناك "الآلهة السبعة الذين يقررون المصائر".. وعلى رأسهم الآلهة"آنو، ومردوك، وإنليل" ..

وما دام الناس يَسْتَمْرِئون الخرافة على هذا النحو، فإن رُشْدهم يمضى متعثراً وبطيئاً .

والإيمان بالله الواحد الأحد الذى ليس كمِثله شىء، تحرير أىُّ تحرير لكل قُوى الضمير والفكر.

ومع إبراهيم عليه السلام، يكتسب الضمير الإنسانى رُشدًا جديدًا ..

فالإيمان بالله الحق سيكشف له إبراهيم نهجًا جديدًا.. هو النظر، والتفكر، والاستدلال..

فإذا كان قومه يعبدون الكواكب والنجوم فلينظر إن كان ذلك حقاً ..؟

ويتابع حركة الكواكب طويلا، ويخضعها لتأملاته الذكية.

فلايرى فيها جلال الألوهة، واقتدارها، وينتـــهى إلى أن هــذه القُوى التى تعتورها تغيرات الحدوث والنُّشوء والتطور والعــدم، لايمكن أن تكون هى، الله رب العالمين.. وإنما الله هو خالقـــها ومَانِحُ كل شيء وجوده وصُمُودَه .

ومن ثم مضى يهزأ بالأوثان التى ملأت مُدن بابل وقراهـــا. بل وبيوتها . سائلا الناس .

هو ﴿ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون﴾ ..؟

ثم صائحا فيهم

﴿..ربُّكم رب السماوات والأرض الذى فطَرهُن، وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾.

ثم يهاجر بإيمانه إلى أرض جديدة يستودعها غِراسَ الحقيقــة التى رآها وآمن بـــها .

وتسير معه أينما ســار، دعوتـــه إلى الله الواحـــد ـــ رب العالمين ـــ وتسير معه كذلك "كَرامةُ الإنسان"..

لطالما كان الإنسان فى تلك العصور والبقاع تغشاه غواشى اليأس والعجز والشك فى قدرته على بلوغ الكمال.

وكان "صَفْقَة" يعقد المجتمع عليها مع آلهته سلامة حياتـــه ومصيره. فيقدم من البشر قرابين وذبائح. وسيشـــهد الضمـــير

الإنسانى مع نبى الله إبراهيم مشهد الوداع لكل هذا..

إن الإنسان شيء ثمين وعظيم.

* * *

ـ"ظهر الرب لإبرام، "إبراهيم" وقال له: أنا الله القدير، سِرْ أَمامى وكُن كاملا" ..

هكذا يحدثنا سفر التكوين .

فالإنسان الجديد فى ظل ربه الحق، ترفعه مسئولياته ومكانته إلى مستوى الكمال الفريد .

"سرْ أمامى وكُن كاملا" ..!!

ومن ذلك اليوم لن يقدِّم الإنسان ذبيحة وقُربانًا.

وستبطل إلى الأبد عادة اختيار الذبائح والقرابين من بـــين صفوف الناس والبشر.

ولكى يكون إبطالها نـــهائيًا وحاسمًا فَسيتم ذلك فى مشهد حافل ومُثير، يعلن الله فى نـــهايته تحرير رقاب البشر جميعًا مـــن تلك العادة .

مع سفر التكوين مرة أخرى :

ـ"ثم مدّ إبراهيم يده، وأخذ السكين ليذبح ابنـــه، فنـــاداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم.. إبراهيم ..

"فقال: هأنذا ..

"فقال: لاتمد يدك إلى الغلام، ولاتفعل به شيئًا؛ لأنى الآن علمت أنك خائف الله، فلم تُمسك ابنك وحيدك عنى..

"فرفع إبراهيم عينيه، ونظر، كبشاً وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه .

"فذهب إبراهيم، وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه

ومع القرآن فى نفس المشهد .

ـ﴿ فلما أسْلما ، وتَلّه للجبين..

وناديناه أن يا إبراهيم..

قد صدَّقتَ الرُّؤْيا، إنّا كذلك نجزى المحسنين..

إن هذا لهو البلاء المبين ..

وفديناه بِذِبْح عظيم ..

وتركنا عليه فى الآخرين ..

سلام على إبراهيم ..﴾

* * *

وتتنقل الراية من يمين إلى يمين، حتى يحملها نبى الله موسى عليه السلام .

ـ وهنا يشهد الضمير الإنسانى استمرارًا مُلِحًّا لنفس المحاولة

العظمى... محاولة الإجهاز على الوثنيات التى تحتجز نمو الضمـير والفكر وكل قوى الإنسان .

ويرتفع الهُتاف الحق بالله الواحد الذى ليس كمثله شىء.

إن الناس لايزالون يريدون أن يعرفـــوا الله عـــن طريـــق صورته.. وهويّته..!!!

ومعنى هذا أن الوثَنية لاتزال تجذبهم إليها فى قوة وتشبُّث.

ألم يتحدث إليهم مُرسلون كثيرون عَبْر القرون، بــأن الله خالق كل شىء؛ وليس كمثله شئ... فمـــا بـــالهُم ينســـون ولا يذكرون .

على أية حال، فليأخذ نبى جديد دوره فى مجـــال التبصـير والتذكير.

* * *

ـ"فقال موسى لله: ها أنا آتى إلى بنى إسرائيل، وأقول لهـم: إله آبائكم أرسلنى إليكم، فإذا قالوا لى: ما اسمه، فمـــاذا أقـــول لهم..؟

"فقال الله لموسى: أهْيَه الذى أهْيَه... أى ـ هو الذى هو..

"قال الله أيضًا لموسى: تقول لبنى إســـرائيل يَـــهْوَه إلـــه آبائكم... إله إبراهيم وإله إسحاق، وإله يعقوب أرسلنى إليكم".

هكذا يحدثنا سِفر الخروج هذا الحديث الذى يُصوِّر زجر موسى لقومه عن أن يسترسلوا مع تلك الاستفسارات المتطفلة التى تنتهى بأصحابها عادة إلى السؤال عن نَسب الله وعائلته.!!

سبحانه عن ذلك وتعالَى.

لقد آن لقضية التوحيد والتنزيه أن تستقر فى وَعْى البشرية على صورتها الصحيحة، ليتفرغ الناس لرعاية الحياة فى ظل ربهم الحق وفى رعايته .

ولقد آن لكل صور الوثنية أن تختفى وتزول .

- ـ"لايكن لك آلهة أخرى أمامى ..
- "لاتصنع لك تمثالا منحوتًا ولا صورة ما، مما فى السماء مِن فوق، وما فى الأرض من تَحْت".

هكذا يعلم الله نبيه موسى، كما يحدثنا سفر الخروج أيضًا ويعلمه كذلك .

- ـ"لا تلتفتوا إلى الأوثان ..
- "وآلهة مسبوكة ، لا تصنعوا لأنفسكم ..
- "أنا الرب إلاهكم.."

* * *

ولقد سهر موسى على تنفيذ هذه التعاليم فى يقظة صارمة.

وحين غاب عن قومه ثم عاد ليجدهم قد اتخذوا لهم صنمًا عجلا من ذهب له خُوار، حَمِيَ وطيس غضبه، وحطّم الوثن ثم قذف به إلى جوف نار متسعرة ـ ثم سحقه وذرّاه ففى الهواء فى حنَق ماحِق .

ومع دَعْم الإيمان بالله وحده، شهد الضمير الإنسانى موكب الوصايا وعاش بها ومعها طويلا.

ـ"لقاط حصيدك لا تلتقط، للمسكين والغريب تتركه..

"لا تَسرقوا ..

"ولا تكذبوا..

"ولا تغدروا..

"لا تُبِتْ أجرة أجير عندك إلى الغد ..

"لا تشتم الأصم وقُدام الأعمى لاتجعل مَعْثَرة.

"لا ترتكبوا جَوْراً فى القضاء.

"لا تأخذ بوجه مسكين، ولاتحترم وجه كبير..

"لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنا، لئلا تزنى الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة ..

"وإذا نزل عندك غريب فى أرضكم فلا تظلموه..

كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم، وتحبُّه كنفسك"..

إن هذه الإنسانيات والأخلاقيات لم تكن فى مفاهيمها الواسعة سوى دعم للمسئوليات التى يفرضها الإيمان بالله.

فليس إيمان الناس بربهم نعمة يُسدونها إلى الله.

إنما هو معراج لحياتهم هُم، يقودها ويأخذ بها إلى آفاق الهدى والخير والفلاح.. أما الله سبحانه فغنى عن العالَمين .

يقول القرآن الكريم :

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَن فى الأرض جميعًا، فإن الله غنى حميد﴾

* * *

ويلقى موسى ربه ..

ويستأنف الضمير مسيره المُبارك حاملا تُراثه المذْخُور، وتجربته النامية منذ القِدم وعَبْر القرون ومُذيعاً بهذا كله، فى كل مكان وبكل لسان .

والإنسانيات التى طالما صَدحَ الضمير بها ودعا إليها نلتقى بها فى سِفر الأمثال من جديد .

ـ"ألْق على الرب أعمالك ، فتثبت أفكارك" ..

"البطىء الغضب خير من الجبار، ومالِكُ رُوحِهِ خير ممـــن يأخذ مدينة"..!!

"لُقمة يابسة ومعها سلامة، خير من بيت ملآن ذبائح مــع خصام ".

"المستهزئ بالفقير، يُعَيِّرُ خالقه" .

"أفكار الصديقين عدل، تدابير الأشرار غِش".

"لاتحسد الظالم، ولاتختر شيئًا من طرقه"

"إن جاع عدوك، فأطعمه خبزًا.

وإن عطش؛ فاسْقه ماء"..

وتمضى السّنون، وتتواكبُ الأجيـــال، وينســـى النـــاس كعادتـــهم ما ذُكرُوا به ودُعُوا إليه..

بيْد أنّ الضمير مشرف فى يقظة على أبراج الحراسة.. ساهر على حماية المبادئ التى رُكّسَ لإنمائها .

والآن، فإن صوتا صادق اللهجة، عالىَ الرنين سوف ينطلق من فؤاد نبى عظيم هو"إشعيا" عليه السلام .

وفى ثورية عادلة سينهض الضمير الإنسانى مع هذا النـــبى ليجعلا من العدالة الاجتماعية قوة فاصلة، ومن طلبـــها ثـــورة عادلة..

ولما كان رجال الدين يومذاك يمسكون بأيديهم الكثير من سلطة التوجيه .

ولما كان أكثرهم، وأكثر الناس معهم، قد صرفوا الدين عن جوهره واتخذوه تجارة واستعلاء، فلابد لحساب الضمير الإنسانى كله أن يُواجِه هذا الزَّيْغ بمنطق صارم مجلجل.

فليأت إذن"إشيعا".. وليواجه أولئك الذين يُمْعِنون فى غسل أيديهم، ويجعلون من قلوبهم مخازن للخديعة والضلال وكل مُوبقة ومكيدة ...!!

ليواجه أولئك الذين يتقربون إلى الله بذبح خروف.. بينما هم يسحقون الناس، أبناءه وخلقه .

وليواجه تلك الطّبقية البغيضة التى جعلت قلة مُتخمَة هنا.. وكثرة ساغِبَةً هناك .

فلنُصغ لـ"سِفر أشعيا" ..

ـ"لاتعودوا تأتون بتقْدِمة باطلة"

إنها بدايةٌ موفقة يريد بها أن يعيد الدين إلى جوهره الحق وينتزع النفوس المخدوعة بالشكليات عن الجوهر واللُّباب.

"البخور..؟ هو مكرهة لى ..

"رأس الشهر! والسبت، ونداء المحفل..؟ لستُ أُطيق الإثم

والاعتكاف ..

"رءوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى ..

"صارت علىّ ثقلا ..

"مَلْلتُ حملها ..

"فحين تبسطون أيديكم ، أستر عينى عنكم ..

"وإن كثرتم الصلاة، لاأسمع ..

"أيديكم ملآنة دما" ..!!

ترى ماذا يريد"أشيعا" إذن ..؟؟

يريد الحقيقة.. يريد الجوهر ..

"اغتسلوا .. تنقّوا ..

"اعزلوا شرّ أفعالكم من أمام عينى ..

"كُفُّوا عن فعل الشرّ ..

"تعلموا فعل الخير ..

"اطلبوا الحق ..

"انصفوا المظلوم ..

"اقضوا لليتيم ..

"حامُوا عن الأرملة "..!!

هذه هى البدايات فيما يريد.. أو بالأحرى فيما يريـــد الله،

ويُبلّغه إشعيا .

• ـ العدل الذى يجعل الناس سَواسِيَة آمنين .

ـ ويل للذين يقضون أقضية الباطل.. وللكتبة الذين يسجلون جوراً، ليصدوا الضعفاء عن الحكم، ويسلبُوا حق بائسى شعبى؛ لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام ..

ـ"وماذا يفعلون يوم العقاب، حين تأتى التهلكة من بعيد".

* * *

• ـ والحرية التى تمنح كل مَسْبىٌ عِتْقًا، وكلّ أسير مُنْطَلقًا..

ها هو ذا ينادى بها فيقول : ـ

ـ روح السيِّد الرَّب علىَّ ..

"لأن الرب مسحنى ؛ لأبشر المساكين ..

"أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ..

"لأنادى للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالانطلاق.."

• ـ والمحبَّة، التى تُجْلى الكراهية والحروب عن مكانها فى حياة الناس وتملأ الأرض سلاماً وأمنًا .

إن رؤيا"أشعيا" عن المحبة تجىء فى صورة بُشرى بالخلاص.. لامجرد دعوة للحب والسلام، تجىء وَعدًا أكيدًا بقدومها وقدُوم مُخلّص يرفع رايتهما .

ـ" يقضى بالعدل للمساكين ..

"ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض".

وعندئذ.، ولَدَى إهلال تلك الأيام المنتظرة

ـ"يسكُن الذئب مع الخروف ..

"ويربض النمر مع الجدى .."

وأما الناس، والدول، والشعوب

ـ"فيطبعون سيوفهم سِككا ورماحَهم مَناجل .

لا ترفع أمَّة على أمة سيفا..

"ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ..!!!

لقد عبَّر نبى الله "إشعيا" بهذه الكلمات والآيات عن أسمى أغراض الوجود الإنسانى .

وسيظل "المُخلّصُون" يجيئون واحدًا بعد آخر لإنجاز هذه المهمة الجليلة .

وسيبقى الضمير الإنسانى يرتاد طريق ذلك المستقبل فى تفاؤل عظيم وإصرار أعظم، مُلقيا فى روع أفراد الجنس البشرى جميعاً حَتْمِية إنجاز هذه المهمة المقدسة.

* * *

وتمضى الأيام ينادى بعضها بعضًا.. وتعاليم الهدى والخير

تكافح فى سبيل استمرارها.

وكالعادة دائما، تبدأ هذه التعاليم فى مقاومة خصومها والكافرين بها، ثم لاتلبث إلا قليلا حتى تجد نفسها تخوض المعركة مع أتباعها وذويها ..!!

وحين نتجه الآن لنلتقى بالسيد المسيح، تواجهنا هذه الظاهرة .

فالذين ارتفعت بين صفوفهم من قريب دعوة المرسلين من قبل بإله واحد للعالمين، لم يلبثوا حتى حوّلوا إيمانهم بالله إلى إله محلّى قومْى .

والذين كان ينبغى أن يكونوا رُحَماء وُدَعاء، راحوا يسرفون فى القتل إسرافًا شديداً حتى نَعَتوه عن سوء فهم بأنه "زكاة للرب" .

والذين كان ينبغى أن يحتفظوا للدين بجوهره ولُبابه وألا يُحرّفوا الحق عن مواضعه، لم يلتزموا هذا الواجب و لم يَفُوا بذلك العهد.

هذا من جانب ..

ومن جانب آخر، كانت هناك"روما" الامبراطورية التى رغم ما كانت تُسديه للتقدم الإنسانى من خير، فإنها كانت

تُذِلُّ الشعوب المستعمرة لها إذلالا وبيلا.

كانت تُصدِّر إليها عِبادة قيصر.. وتستوردُ منها ما لديــــها من ثروة ورِزق ..!!

وكانت القسوة الظالمة طابع علاقات الحــــاكم بــالمحكوم، والقوى بالضعيف .

وكانت عقوبة الصَّلْب إجراء هينًا يشبِه فى أيامنـــــا هـــذه "لَفْت نظر" أو غرامة"بضعة قروش" ..

وكانت محاولات العبيد الثورية فى روما لتحطيم أغلالهـــم، ومحاولات الشعوب المستعمرة خارج روما لنيل حريتها ـ هـــذه وتلك تُقمع بوحشية لانظير لها سواها.

ولم ييأس الضمير الإنسانى، ولم يدَع الراية تُسقطها مــــن يمينه تلك الأعاصير. بل واصَلَ نضاله ضد المحرفــين والمخربــين والقساة:

وفيما هو يناضل ويقاوم، جاءه من الله ظهير.

- "طوبى للودعاء، لأنـــهم يرثون الأرض.

"طوبى للجياع والعطاش إلى البِر، لأنـــهم يشبعون

"طوبى للرحماء، لأنـــهم يرحمون..

"طوبى للأنقياء القلب، لأنـــهم يعاينون الله..

"طوبى لصانعى السلام، لأنـــهم أبناء الله ويُدْعَوْن ـ"..!

إنه السيد المسيح يتحدث

وإنه باسم الله وعَلى بركَته يأخذ بيد الضمير الإنســانى إلى نُهاه وهُداه ..

ولكن، أفى مُواجهة هذا الظلم، وهذه القسوة يقال للنــاس: طوبَى للودَعاء.. طوبَى للرحماء.. طوبَى لصانعى السلام ..؟؟!!

أجل، ولا يقال إلا هذا فى مثل ذلك المقام .

فالمسيح لم يأت ليحل قضية قومية. أو زمنية، إنمــا جــاء ليكشف للإنسانية بعض حقائقها الخالدة ثم يمضى ، ومن هـــذه الحقائق. أن البشرية منذ نشأتها تقاوم الشر بالشـــر، والســيف بالسيف، فماذا صنعت..؟ وإلام انتهت..؟

لا شىء.. مشاكلها تتفاقم.. ورصيد الشر ينمو ، وقـــوى الكراهية تزيد.

ولقد ارتفعت من قبل أصوات صادقة وأمينة تدعو إلى المحبة والرحمة.. ولكن الناس ـ جميع الناس ـ أصروا على الثَّأر، ودفــع الشر بالشر.

وقد يكون ذلك طبيعيًا بعض الوقت.. ولكنه لاينبغـــى أن يكون طبيعياً على الدوام .

فما دامت البشرية تسير إلى كمال مقدور ، فأولى سِمات هذا الكمال، لابد أن تكون نبذ الكراهية والقسوة والقتال .

وهذا ما جاء المسيح لتبيانه على أوضح نَهْج.. تبيانه لابما يقول من كلمات فحسب.. بل وبالنموذج الكامل لسلوكه وحياته .

قد نقول نحن اليوم عن هذا المنهج الفريد: إنه تجربة لابأس بها ..

بيد أنه عند المسيح لم يكن تجربة.. ولَدَى الضمير الإنسانى لم يكن كذلك أيضًا.

هو شيء أصدق وأعظم.. هو حقيقة وجَوهر..

إن المسيح يقول للناس بموقفه ذاك.. إن البشرية ماضية حتما إلى هذا.. وذاك هو مصيرها وهذا هو شكلها القادم.. إخوان يحبون إخواناً، لايقاومون الشر بالشر. بل بالخير.. ولايزجرون الكراهية بالكراهية.. بل بالحُبّ، حتى يختفى الشر وتزول الكراهية.

فما دام هذا هو المستقبل المشرق المحتوم، فلماذا لايتعجله البشر.؟ ولماذا لايحثون الخُطى إليه..؟ فليبدأ المسيح إذن، وهذا هو السبيل :

ـ"سمعتم أنه قيل: عَين بعين، وسِنٌّ بسن ..

"وأما أنا فأقول لكم: لاتُقاوموا الشَّر ..

"بل مَن لطمك على خَدِّك الأيمن، فحوِّل له الآخر أيضًا..

"ومن أراد أن يُخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضاً..

"ومن سخرك مِيلا واحدًا. فاذهب معه ميلين ..

"مَن سألك فأعْطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردُّه ..

"سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتُبغض عدوك..

"وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم ..

"باركوا لاعِنيكُم ..

"أحسنوا إلى مُبغضيكم ..

"وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم؛ لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات؛ فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين" .

تُرى.. أيُستطاع هذا..؟؟

ـ كيف يحب الإنسان مُبغضه ..

ـ كيف يُبارك لاَعِنَه، ويُحسن إلى شانِئِهِ..؟

عند المسيح لايكون السؤال هكذا.. بل يكون:

ـ كيف لايُحب الإنسان مُبغضه ..؟

ـ كيف لايُبارك لاعِنَه ..؟

ذلك أن الإنسان الذى يدعوه المسيح لهذا، هو الإنســـان البارّ المتفوق .

فإذا تشابَهَت حوافز الأبرار وحوافز الأشرار فأين إذن مزيَّة الأبرار..؟ وإذا كان حبهم ووُدّهم مجرد رد فعل لحب الآخريــن إيَّاهم ومودّتــهم لهم فأى فضل لهم ..؟!

ـ".. لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم؛ فأىُّ أجر لكم..؟

"ألَيْس العشّارون أيضا يفعلون ذلك ..؟!

"وإن سلمّتم على إخوانكم فقط، فأى فعل تصنعون..؟

أليس العشّارون أيضاً يفعلون هذا..

"فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذى فى الســموات هو كامل" ..!!!

إن وأْد نوازع الشر والتربُّص إلى هذا المدَى البعيد هو هدية المسيح إلى المصير الإنسانى كله .

ولقد بلغ الدرس جلاله الأعظم حين أصرَّ المســيح علــى انتهاج هذا المَسلَك فى أخطر لحظات حياته .

فحين اقتحمت قوى الشرّ مُصَـــلاّه.. وأوثقــه البــاغون

وحَملوه إلى حيث أرادوا أن يضعوا نهاية لحياته الطاهرة الجليلة.

ساعتئذ، وحين هَوَى تلميذ من تلامذته بسيفه على أحد الجنود المقتحمين فصَلَم أُذنه، وصاح المسيح فى وجهه صيحته المباركة:

ـ" رُدَّ سَيفك إلى مكانه .

"لأن الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون"...

* * *

قلنا: أن دور المسيح كان متمثلا فى أن يُعلن هذه الحقيقة الخالدة حقيقة أن المحبة أقوى وأبقى وأن مقاومة الشر بالخير ليست ممكنة فحسب، بل ومحتومة الظفر والنجاح أيضاً.

وقلنا إن دوره فى هذا لن يكون بمجرد ترداد هذه الحقيقة بكلماته.. بل وصَوْغ نموذجٍ لها فى حياته .

وهكذا ثابر عليها حتى لقى ربه .

فماذا حدث بعد رحيله عن دنيا الناس...؟؟

إن كهنة "أورشليم" بكل مكرهم وغدرهم..

وإن سلطان روما فى "أورشليم" بكل عَتاده وعناده..

بل إن أباطرة روما جميعًا ـ والامبراطورية الرومانية كلها، قد صاروا وصارت ترابًا، ونسيانًا ، وبَدَدًا .

أما المسيح.. أما إنجيله.. أما مملكته.. ـ ومعذرة إليه عـــن هذا التعبيرـ فلننظر.. أى ذُيوع ؟ وأى مجد؟ وأى سلطان، منـــذ رحل عن الأرض حتى اليوم ..!!!

صحيح أن البشرية لم تستطع مع دعوته إلى الحب صبْرا..

وصحيح أن الكنيسة نفسها، قد حملت فيما بعد كل ألويـة الكراهية والقسوة والبطش، وضِدَّ مسيحيين من بنى جلْدتـــها..

وصحيح أن ما أحرزته المسيحية من مجد ونفوذ وسلطان لم يكن ما يريده المسيح ..

كل هذا حق... ولكن كل هذا لايطمس ذرة من الوجـــه الآخر للحق وهو أن المحبة كحقيقة ظافرة قد بلغت فى المســـيح منتهى الوضوح والصدق .

فـــ"ابن الإنسان" الذى عاش بالحب، وللحـــــب.. هــذا الأعزل من كل سلاح.. الفقير من كل مال.. النابذ لكل جاه أو سلطة يكتب له ولدعوته من الخلود ما لم يظفر بمعشار معشـــاره كل مَن حمَلت الأرض من أباطرة وملوك وسادة وأثرياء ..؟

إن المحبة إذن قادرة على صنع المعجزات التى ليست كمثلها معجزات .

وإن مقاومة الشر بالخير، والسيف بالسِّكينة، والكراهيـــــة

بالحب ..

إن ذلك كله. وإن لم يَخْم صاحبه أحيانًا من الضُّرِّ فى حياة الناس القصيرة، فإنه دائما وأبدًا وحَتْمًا يمنح حياته ودعوته خلودًا لايُطاوله خلود، ويستبقى منه للبشرية بعد رحيله عنها كل نَفْعِه وعَبيره وهُداه ..

ولقد مضى المسيح فى دعم السلام الاجتماعى بمنطقه العذب وإقناعه الوديع، غير تارك وسيلة تُحْييه وتشد أزره إلا أوصى بها وجعلها شَعيرةً وعبادة .

ـ"قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لاتقتل. ومن قتَل يكون مستوْجب الحُكْم ..

"أما أنا فأقول لكم: إن كل مَن يغضب على أخيه باطلا يكون مُستوْجِب الحُكم."

ثم يمعن إمعانه النبيل فى دَعْم هذا السلام وهذا الإخاء فيقول :

ـ"فإن قدمتَ قربانك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدّام المذبح، واذهب أولا، واصطلح مع أخيك، وحينئذ تعالَ وقدِّم قُربانك".

ويسأله تلميذه الأول"بطرس".

ـ"كم مرة يخطئ إلىّ أخى، وأنا أغفر له..؟

"هل إلى سبع مرات ..؟

ـ قال له يسوع :

"لا أقول لك إلى سبع مرات.. بل إلى سبعين مرة" ..!!

وإذ كانت الأنانية، والطمع، واحتكار أسباب الرزق، من شر ما يُمزِّق وشائج السلام والإخاء والمحبة، فقد قاومها المسيح وسفّهها جميعًا، ونادى بأن علاقة الناس بالمال يجب أن يكون أساسها القناعة لاالشّر..

• ـ" لا تكنـزوا كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصَّدأ، وحيث ينقب السارقون، ويسرقون..

• ـ"لا يقدر أحد أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر.. أو يُلازم الواحد ويحقر الآخر.. لاتقدرون أن تخدموا الله والمال"

وحين يُسأل يوما عن طريق البر والكمَال، يجيب سائله:

ـ"إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب بربع أملاكك، وأعط الفقراء، فيكون لك كنز فى السماء، وتعال اتبعنى.."

وإذا كان غِياب التسامُح ، يعنى الشطَط وتوتر العلاقات الإنسانية، فقد وقف"المسيح" يشيد بالتسامح وتقدير الظروف

الإنسانية تقديرا يُفىء الحنان والتعاطف.

• ـ"لا تدينوا لكى لاتدانوا.. لأنكم بالدينونة التى بـــها تدينون، تدانون..

"وبالكيل الذى به تكيلون، يُكالُ لكم"

ومن ثمّ كانت طريقته فى مقاومة الخطيئة ملائمة تماماً لإيمانه بالمحبة وبالرحمة ..

"إنى أريد رحمة، لاذبيحة، لأنى لم آت لأدعُوَ أبراراً للتوبـــة بل خطّائين" ...!!

وإذا كان الخير والشر مُتزاملَين فى الحياة الإنسانية تزامـــل السَّالب والموجب؛ فإن أزكى السُّبُل لإرْباء جانب الخـــير هـــى الدعوة الحانية إليه والأخذ بيد الخُطاة فى مشاركة عاطِفة.

والله ربه، ودودٌ ورحيم.. قلمَّا تحدث المسيح عنه ســبحانه كمنتقم وغضوب.. وطالما تحدث عنه كأب حانٍ ورحيم.

• ـ"اسألوا تُعطوْا.. اطلبوا تجدوا.. اقرعوا يُفتح لكـــم..؛ لأن كل من يسأل يأخذ.. ومَن يطلب يجد.. ومَن يَقْرع يُفتـــح له..

• ـ"أم أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجَرا..؟ وإن سأله سمكة يعطيه حيَّة..؟

"فإن كنتم وأنتم أشرار، تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيِّدة، فكم بالحرىّ أبوكم الذى فى السماوات، يَهب خيرات للذين يسألونه "..؟!

رؤية مُشرقه لرب عظيم ..!!

هذا الربُّ الأحد الذى دعا المسيح لعبادته وحده فقال!

".. مكتوب للرب إلهك تسجد ..

"وإياه وحده تعبد ..!!"

* * *

هذا هو الحب العظيم، الذى حمل أمانته، وأنجز تبعاته"ابن الإنسان "يسوع ..!!

وما أعذب الحب وما أجلَّه حين يكون نموذجه المسيح..

لقد كان الحب دينه ووصيته وحياته .

ولقد سأله سائل .

ـ"يامُعلِّم.. أية وصية هى العظمى فى الناموس..؟

"فقال له يسوع: تحب الرب إلاهك من كل قلبك، ومن كل فكرك، ومن كل نفسك ..

"هذه هى الوصية الأولى والعظمى ..

"والثانية مثلها، تحبُّ قريبك كنفسك "

وكلمة"قريب" حين ينطقها المسيح، يتراحَبُ مفهومها حتى يشمل الخليقة الخيِّرة جميعها .

• ـ "لأن مَن يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى، وأختى، وأمى "..!!

* * *

وهكذا تلقَّى الضمير الإنسانى من هذا القلب المحب الذكىّ جُرعة شباب طويلة ـ بل قولوا: خالدة.. وسيَظل بها ريَّانا وَضِيًّا.

كما تَلقت الحياة الإنسانية. نفس الجرعة المباركة أيضاً..

* * *

وتمضى الأيام فى تتابعها المعهود والضمير الإنسانى يُنَمِّى خلال الزمان تراثه.. تراثه الذى أفاءته عليه خبراته ورُؤاه.. والذى تلقاه من أنبياء الله ورسله ..

ويخوض معركته الدائبة مع قوى النكوص والتردد والمراوَغة.

وبعد رحيل المسيح، كانت معركة الضمير قاسية، فاللحظات الباهرة التى عاشها الضمير مع المسيح فى حلم سعيد، ولَّتْ حثيثة ..!!

واكتشف الضمير أن الحب الذى عاشه المسيح وتحدث عنه كان فى غير أوانه.. والطبائع الإنسانية، لايزال المـــدى الـــلازم لترويضها مديداً وبعيداً ..

لقد أعطى المسيح البشرية إحدى الحقائق الكبرى، وهى أنه فى مستطاع البشر أن يذيبوا كل مشـــاكلهم فى دفء الحـــب والرحمة .

وسيكون دور الضمير فى تلك المرحلة من مَسيره أن ينقـــل إلى الأجيال انطباعات تلك الحقيقة الناجحة التى شهدها بنفســه وعاشها مع بطلها العظيم .

ولكنه لايكاد يبدأ حـــتى تفـــدح ســكينته الأحـــداث، فالصفوف التى حملت لواء المسيح، يستشرى بينـــها التحريـــف والنـــزاع.. أجل بينها نفسها..!!

إن المثل العليا عادت ولا أثر لها فى نفـــوس أتباعـــها وفى الحياة، إلا فى تلك الأشكال والمظاهر.. فى الكـــاهن والذبـــح، والاغتسال فى دم المسيح .!!

وإلا ذلك النـــزاع القاتل مِن الذين فرقوا دينهم وصـــاروا شِيعًا ـ لكل فريق مَسيحهُ وثالوثُه .

والكنيسة البيزنطية تصلى المسيحين أنفسهم الذين لايؤمنون

بمذهبـــها عذابًا واضطهادًا.

والعالم يومئذ يقع فريسة لموجات رهيبة من إغارات السطو والنهب، والتخريب ..

وأكبر إمبراطورياته يومذاك تعـــانى وتعـــانى شعوبـــــها ومستعمراتها معها الانحطاط، والدَّمار .

فإمبراطورية الرومـــان الشـــرقية. وإمبراطوريـــة الفـــرس الساسانية، تترنحان تحت ضربات ما ضيها الظّلوم وحاضرهمـــا التعِّسِ .

والعالم كله تقريباً فى حالة فقدان تام لكل توازنه السياســى والاقتصادى والاجتماعى .

أما حياته الروحية، فقد أجدَبــها قَحط مُميت، وتحوّلــت القيم الدينية والأخلاقية بين أيدى الحكام والسدنة إلى صفقة..

أما فى قلوب الجماهير وعقولها فقد تحولت إلى أسـطورة ــ عدا بقيَّة مِمَّن رَحِمِ الله .

وفى هذه المنطقة بالذات، حيث ينعكس عليـــها فوضــى بيزنطة وتدهور الفرس..

فى هذه المنطقة كما فى سواها وقعت الحياة الإنسانية تحت وطأة التخاذل والتفكك والضيّاع.. ولم يعد هناك مثَــلٌ أعلــى

يجمعهم ويردُّهم إلى رُشدهم الأوَّل .

إنـــها ظاهرة مؤسفة ومحيرة ..

فأين محاولات الضمير فى كل تلك الألوف الســالفة مـــن السنين ..؟

أين هُتافات المصلحين والفلاسفة والرواد ..؟

وقبل هذا كله.. أين التراث الروحى العظيم الذى خلَّفـــه للبشرية كلها الأنبياء والمرسلون ..؟

لقد بدا الأمر ـ وكأنما أفلتت من يد البشرية جميع أرباحــها العظيمة ..

حتى الإيمان بإله واحد أحد.. هذا الذى توالت مواكـــب الأنبياء هاتفة به .

حتى هذا الإيمان يضيع فى لُجج الحقد وزحمة الضلال..

وإذا كان هذا الجزء من العالم، حيث الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الفارسية، وما يدور فى فَلكيَـــهْما مـــن شعوب وبلاد ..

إذا كان هذا الجزء الكبير من الدنيا، وهو يومذاك الجـــزء المتحضر، أو الأكثر حضارة ..

إذا كان قد تـــهاوى تحت ضربات الخلاف والانحـلال إلى

هذا المدَى.. فما شأن بقية الدنيا إذن..؟!

إذا كانت البقاع التى يتوافد عليها أنبياء الله منذ عدَّة آلاف من السنين ـ قد نحَّت الإيمان بالله جانبًا، وذهبت تحتَرِبُ فى عنف حول طبيعة المسيح ـ وهل هى واحدة أم متعددة..؟!

وذهب بعضها الآخر يعبد أصناماً، وأوثاناً..

وإذا كانت البقاع التى ششهدت ميلاد كل مثـــل أعلـــى لايجد أهلها اليوم مثلا أعلى واحـــدًا يجمع شتاتـــهم ويضـــىء أفئدتـــهم، فما حال ذلك المُنحنَ البعيد من العالم ..؟

إذا كان الروم الذين ورثوا دين"المسيح" قد انتهوا إلى هـــذا المصير المحزن ..

والفرس الذين جاءهم"زرادشت" قبل الميلاد بستمائة عـــام وثار ثورته المباركة على الوثنية والمَجُوسيَّة، وحطم بعزم رشـــيد الأصنام التى كانوا يعبدونـــها من دون الله.. ودعاهم إلى عبـــادة الله وحده، إله النور والسماء"أهورا ـ مزدا" خالق الســـماوات والأرض، والشموس والكواكب التى كانوا يعبدونـــها مـــن دون الله.. وناداهم إلى كل فضائل الحياة وزجرهم عن آثامهم ..

بيْد أنه ما كاد يرحل عنهم إلى ربِّه حتى حرَّفوا شـــريعته، وعَبدُوا النار وقدَّسوها. واتخذت كل أُســـرة لنفسـها مَوقِـــدًا

لاينطفئ ناره قط، يتحلقون حولها ضارعين مُصَلين.

والإمبراطورية التى تأسَّت يوماً بتعاليم"زرادشت" عـــادت تنشر الظلم والفساد والإثم فى كل مكان .

أليس العالَم كله إذن ـ لا قُريــش وحدهــا ـ فى حاجــة يومذاك إلى بشير ونذير ..؟؟

ولكن بأية دعوة يجيء هذا البشير ..؟

إنـــها نفس الدعوة السابقة، والحقيقة السالفة التى هتـــف بـــها الأنبياء والمصلحون .

فتلك الدعوة لم تكن باطلا حتى يجيء اليوم بسواها.

وهى لم تُخفق حتى تجيء بأخرى ظافرة .

إنما الناس هم الذين أخفقوا فى الأخْذ بـــها والسير وَفْقَها.

سيجئ رسول جديد إذن ليرد لهذه الدعـــوات الصادقـــة شبَابـــها..

ولأن أيامه المباركة فوق الأرض ستكون آخر جوْلة للنبـــوة وللوحى فى دنيا الناس؛ فإنه فى سبيل السمو بالروح، لن يعمـــل بعيداً عن كل ماليس روحياً فى طبيعة الإنسان .

لن يبنى"ملكوت الله" فى أفئدة الأبرار وحدهم، بل سـيقيمه ويشيده وسط صفوف الجماهير والكافة بكل خيرها وضَعفها.

وهو لهذا لن يدَع تعاليمه وديعة لدَى المُيول الخيِّرة والنوايا الطيِّبة للناس، بل سيغرسُها فى أعماق الطبيعة الإنسانية والطبيعة الاجتماعية معًا .

وهو لن يتركها حكمة منثورة ، بل سيصوغها فى تَلاَحم فذ، حتى يجعل منها قوانين للروح وللحياة .

* * *

وهكذا مضى الضمير الإنسانى يبحث عن الرائد الجديد.. يبحث وسط العالم المتهاوى.. يبحث وسط الظلام والضياع..

ولكن الله كان أبَر وأرحم، فقد اختار بذاته البطل.. اختار الرسول الذى سيُتمِّم عمل المرسلين .

والراية التى حملها نوح وهود وصالح وشعيب ..

وحملها إبراهيم وموسى والمسيح ..

الراية التى حملها عشرات، ومئات من أنبياء الله والتى خفقت عاليًا بكل آيات الخير والحق والإيمان.

هذه الراية سيحملها المختار محمد... وسيقود تحت لوائها ذلك العالم الضال المتعطش إلى التوحيد وإلى الإخاء، وإلى العدل وإلى الحرية ..

أجَل لِينهض رسول الإيمان والعزيمة فقد جاء دوره .

لينهض. لكى يُمكّن فى الأرض آخر كلمات السماء..

و﴿ياأيها الرسول بلّغ ماأُنــزل إليك مِــن ربــك، وإن لم تفعَل فَما بلَّغْتَ رسالته.. والله يَعصِمُك من الناس﴾

* * *

﴿إنَّا أرسلْناكَ بِالْحَقِ بَشيراً وَنذِيراً﴾

* * *

﴿كذلك يُوحِى إليك وإلى الذين مِن قَبْلِــك، الله الْعِزِيــزُ الْحِكِيمُ﴾

* * *

﴿وإنك لتهدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتقيمٍ..

﴿صرط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض..

﴿ألاَ إِلَى اللهِ تَصيرُ الأُمُورُ﴾

* * *

﴿فَإن أَعرضوا، فما أرسلناك عليهم حفيظًا، إنْ عَليــكَ إلا البلاغ﴾..

* * *

وقام الرسول يبلغ رسالته، ويردُّ الإنسانية إلى ربــها الحــق ويفتح أمام ضميرها سُبل الرُّشْد ومَسالِك التطور نحــو المعرفــة

والخير والارتقاء .

ماذا أعطى محمدﷺ الضمير الإنسانى وماذا أضاف إلى تُراثه..؟

إن هذا يتضح من خلال معرفتنا جوهر الرسالة المحمدية ذاتها فما جوهرها ؟

لعلّ هذه الآيات القرآنية تجمع هذا الجوهر وتشير إليه.

- ـ﴿ إنما الله إله واحد ﴾.
- ـ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارَفوا﴾
- ـ﴿فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً﴾
- ـ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾

أجل ـ تلك هى الأسس التى ستنهض عليها كل مبادئ الدين وتعاليمه .

١. الله رب العالمين ..

٢. الناس كلهم إخوة ..

٣. الخير، لا الشر ، هو مناط وجودنا، وزادُ مصيرنا..

٤. الحياة شروق متجدد ومستمر لرؤى المعرفة والعلم..

هذه هى الحقائق التى سيغرسها محمد عليه الصلاة والسلام فى الضمير الإنسانى ويُحكم غِراسَها ..!!

ـ فأما الحقيقة الأولى، وهى وجود الله ووحدانيتــه؛ فــإن محمداً يعطيها جلالها الحق، ويعطينا صورتها المُثلى .

وأى عجب، وقد تلقَّاه قلبه من بارئه ليكون مِن المُنذرين؟!

لقد وضع القرآن عقيدة التوحيد والتنــزيه مكــان كــل محاولات التعدُّد ، والشِّرك، والوثنية..

ولقد أعلن هذا بصورة حاسمة فاصلة ..

ـ﴿إن إلهكم لواحد..﴾

﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾

* * *

وهو منــزه عن كل ما يتصوره الناس من تشبيه، وتمثيــل وتجسيد .

﴿ليس كمثله شئ﴾.

﴿لم يَلِد، ولم يُولَد﴾.

* * *

وهو مصدر الوجود كله. والخير كله .

﴿كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وهؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَــاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾

وهو الذى صمم وحده هذا الكون الهائل، وضمنه قوانينــه

التي تحركه وتـــهديه .

﴿أعْطَى كُلَّ شَىءٍ خلْقه، ثُمَّ هَدَى﴾..

* * *

﴿الَّذِى خَلق فسوَّى، والَّذى قدَّر فهدى﴾..

* * *

﴿ولَنْ تَجدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً﴾

* * *

وهو رب ودود ، وأب شفوق..

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفسهِ الرَّحْمَة﴾..

﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾..

* * *

﴿وَرَحْمَتِى وَسعتْ كُلَّ شَىءٍ﴾..

* * *

﴿إنَّ الله بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾..

وهو إلى جوار ذلك أحكم العادلين،فلا يُحابى ولايجامل..

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَت رَهِينَـــةٌ﴾..

* * *

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يَرَه﴾..

﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

* * *

﴿ولا تَزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى﴾

* * *

﴿وما أنا بظلاَّم للعبيد﴾

﴿وإن كان مِثقالَ حبَّة من خردلٍ، أتينا بـــها... وكَفى بنا حاسِبين﴾

* * *

وهو حاضر لا يغيب، لا يَفتقده زمـــان، ولا مكـــان، ولا مخلوق :

﴿وسع كُرسيهُ السماواتِ والأرض﴾

* * *

﴿ما يكون مِن نجْوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾

* * *

﴿أم يَحسبون أنَّا لانَسمع سرَّهُم ونجْوَاهم..؟ بلى.. ورُسلُنا لدَيهم يكتبون﴾

* * *

وهوسبحانه ربُّ الجميع، ليس بينه وبين عباده حجـــاب،

ولا يقف على أبوابه الواسعة كُهَّان، ولاحُرَّاس، ولا سَدَنة.

﴿فأينما تُولُّوا فَثَمَّ وجْهُ الله﴾..

* * *

﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب﴾

* * *

وهو ليس إله قريش وحدها، أو العرب وحدهم، أو المسلمين وحدهم.. ليس إلهاً مَحلِّياً أو قَومياً.. بل هو رب العالمين جميعاً

﴿يابنى إسرائيل، اعبدوا الله ربى وربَّكم﴾

﴿يا أهل الكتاب، لاتغلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾..

* * *

﴿يا أيها الناس، اعبدوا ربكم الذى خلَقكم﴾

ليس رب محمد إذن إلا رب الأقوام كلهم، والناس أجمعين.. ولافضل لقوم عند الله على آخرين..

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾..

وهو إذا آثر قومًا؛ أو أحدًا بحبه ورضوانه، فليس إلا لما معهم من خير وصلاح.

فهو سبحانه :

﴿يحب المُقْسِطين﴾..

﴿يحب المُحسنينْ﴾..

﴿يحب الصابرين﴾..

﴿يحب التوَّابين، ويُحب المتطهرين﴾..

﴿يحب المتقين﴾

وكذلك الشأن فيمن. وفيما لايُحِب..

فهو سبحانه :

﴿لايحب المعتدين﴾ ..

﴿لايُحب الفساد﴾..

﴿لايحب كل مختال فَخور﴾..

﴿لايحب المستكبرين﴾..

﴿لايحب كل خوَّان كَفُور﴾..

﴿لايُحب الظالمين﴾..

* * *

وأما الحقيقة الثانية.. وهى الأخوَّة البشرية ، فقد جلاّهـــا ووضعها فى أحسن تقويم .

فالرسول الذى نشأ فى بيئة قبلية، القبيلة فيها أوسع مجـــال

جغرافى؛ وأرحب مدى لحدود التآخى والتعارُف ـ يُطِلّ بروحه على الأرض كلها والبَشرية جميعًا ـ أبيضها وأسودها وأصفرها.. ويتردد فى القرآن المُنزل على قلبه كلمة{العالمين} عشرات المرات ..

فالله ﴿رب العالمين﴾ ..

والقرآن ﴿ذِكْرٌ للعالَمين﴾

والرسول ﴿رحمة للعالَمين﴾

* * *

﴿لتكون للعالَمين نذيرًا﴾

﴿يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا﴾

* * *

ومن بين جميع الأنبياء والمرسلين ـ كان محمد الرسول الوحيد الذى كتب لكل الملوك والرؤساء المجاورين له، بل والبعيدين منه.

وهو حين كتب إليهم يبلغهم كلمة الله، لم يكن يملك قوة ـ أية قوة ـ تُضفى عليه سِمَة الفاتح، أو الراغب فى فتح .

كان صاحب دعوة لاأكثر، أمره ربه أن يبلغها الناس جميعًا ولما لم يكن قادراً على أن يطوف بالأرض كلها، ويقابل

الشعوب جميعًا .

ولما كان الناس على دين ملوكهم إلى حد كبـــير.. فقـــد اكتفى يومئذ بأن يبلغ ملوك الأمم ورؤساءها جوهـــر رســالته ليؤمنوا وليدعوا أقوامهم إلى الإيمان .

فهو بكتبه تلك التى أرسلها هنا وهناك. إنما كـــان يحمـــل تبعاته تجاه البشرية كلها. إيمانًا منه بوَحْدتها .

وحقيقة أن الناس كلهم إخوة.. تتجلّى فى القرآن الكـــريم تجلّياً باهرًا .

فالقرآن لايرى هذه الوحـــدة فى صورتـــها التاريخيـــة والاجتماعية فحسب.. بل ويراها كذلك فى صورتها البيولوجية، وبهذا يعطيها قداسة أوفى .

ها هو ذا يتتبَّع الأطوار البيولوجية لهذه الوحدة، فيقول :

﴿ومن آياته ، أن خلقكم من تُراب﴾.

* * *

ثم ـ ﴿خلقكُم من نفس واحدة﴾

* * *

ثم ـ ﴿خلَقكم ، والذين من قبلكم﴾..

* * *

أما صورتـــها التاريخية والاجتماعية، فيعرضها فى هذه الآية الكريمة :

﴿وما كان الناس إلا أُمة واحدة فاختلفوا﴾..

* * *

فالبشرية إذن بدأت كلها من تراب، ثم من أب واحـــد.. وهى كلها بدأت فى التاريخ أمة واحدة وعالماً واحداً..

أجل ـ كانت رعيلا واحداً ذات يوم.. ولكن هذا الرَّعيل تحوَّل مع نُموِّه المتكاثر، وهِجراته الكثيرة التى غَمَر بـــها وجـــه الأرض ـ إلى شعوب وقبائل وأمم.

وفيما بعد، وقد صار لكل شعب شخصيته ومصالحه، بـــدأ الخلاف، ولكن ستكون العاقبة أن تعـــود البشـــرية إلى نقطـــة انطلاقها فى حركة"حَلَزُونية" وفى مُستوى أعلى".

وكذلك :﴿ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارَفوا﴾

هكذا أعطى القرآن الإخاء البشرى قانونه، وهو يُتمُّ صياغة هذا القانون فى حِذقٍ عظيم.

فإذا كانت الآفة التى تعرقل نمو الإخـــاء والتعـــارُف هـــو التعصب ففيم يكون التعصُّب عادة ..؟

إنه يكون للجنس.. واللون.. واللُّغة.. فلْيمحق القرآن هذه

الآفة فى محيطه ليعطى القدوة والمَثَل ..

لقد بدأ فأعلن ـ كما سبَق ـ أن الله رب العالمين ..

وأكرَمُ الناس على الله، ليس أبيضهم ولا أسودهم بل أتقاهم .

وأعلن الرسولﷺ أنه :"لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى"

ورفعَ"بلالا" الحبشى. و"سَلمْان" الفارسى فى دعوته وأمته مكانًا عَليا ..

وهكذا نَحَّى التعصُّب للجنس بعيدًا.

أما الّلون، واللغة فقد عجب القرآن، وعجب الرسول من الذين يجعلون منهما امتيازًا يعطيهم حقوقًا ليست للآخرين، بينما هما ليسا إلا آيتين من آيات الله..

﴿ومن آياته خَلْق السماوات والأرض، واختلافُ ألسنتكم وألوانكم﴾

* * *

ووقف "محمد" عليه السلام ينادى فى الناس:

"ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى"..!!

وانتظم القرآن مِن آياته وكلماته، كلمات ليست عربيـــة، ليُعلِّم الناس أنه وهو الكِتاب العربى المُبين لايـــرى فى اختـــلاف الألسنة مدعاة لتعصب أو انطواء..!!

* * *

وهذه الوحدة البشرية التى يقدمها ويهديـــها الإســـلام إلى الضمير الإنسانى، لا تقوم على خَواء.. ولا تستمدُّ بقاءها مـــن الأريحية الإنسانية، والنوايا الطيبة وحدها، بل تصـــل نفســها وقانونـــها بجذور الطبيعة الإنسانية كلها.. فحين ينادى الإسلام بالحب مثلا..فهو يعلم أن الحبَّ خـــلال التطبيـــق الإنســانى والنــزعات والغرائز، يشبه العلمية الحسابية..لا تظفـــر فيــها بحاصل الجمع مثلا، إلا بعد أن نجرى عملية الجمع أولا.. فلكـــى نظفر بالمحبة، يجب أن نظفر قبلها بأشياء كثيرة.. هذه الأشياء التى يرتبط الحب بـــها ارتباط حاصل الجمـــع بالإرقـــام المجموعـــة نفسها.

أظنكم الآن تعجبون من إقحـــام الأســـلوب الريـــاضى والحساب فى شفافية الحب وألقه..

ولكن هذا، هو دَوْر محمد العظيم..

وهذه هى هديته إلى الضمير الإنسانى..

أن يُحـــوِّل كل القِيَـــم التى آمن بـــها وآمن بـــها إخوته الأنبياء من قبله ـ إلى قوانين ثابته واضحة، لاتنحـــــرف عنـــها معانيها ولا الأنفس الدائرة فى أفلاكها..!!

ونعود للمثال الذى كنا نضربُه وهو الحبُّ ..

قلنا: إننا لانظفر بالحب إلا بعد أن نظفر بمقدماته .

هذه المقدمات التى هى فى نفس الوقت نتـــائج لمقدمـــات أخرى .

فنحن نعرف أن الحب يؤلف بين الناس حقاً ..

ولكن متى ..؟

عندما يكون العدل قائماً ..

أما حين يختفى العدل فلا يؤلف بينهم يومئذ سوى الحِقْـــد والكراهية ..

ولكن هل العدل وحده مُناخ الحب ..؟

كلا ..

فالعدل قد يكون صارمًا، وقاسيًا، ومُتزمّتا.. وعندئذ يختفى التسامَح، وتختفى الرحمة، فيختفى الحب رغم وجود العدل ..

لقد كان المسيح يقظان لكل هذه الاعتبارات حين هتـــف بالحبْ وجعل حياته محَبَّة.

ولئن كانت أيامُه لم تطل على الأرض حتى تبلغ دعوته مَدَاها؛ فإن أخاه محمدًا ليواصِلُ التقدُّم فى خُطى ثابتة ووعى عظيم .

ليست النوايا الطيبة إذن ـ كما أسلَفْنا ـ هى التى يستودعها"محمد" الأخوة البشرية.. بل سيضع بذرتها فى أغوار الطبيعة البشرية والطبيعة الاجتماعية معًا .

وسيهديه القرآن إلى الطريق ..

إن البشرية الراقية عند القرآن تتمثل فى : ـ

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات..وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر﴾

فالحق، والصبر، هما معراج التفوُّق الإنسانى، وقانون العلاقات الإنسانية .

فالتواصى بالحق ـ يعنى احترام كل حقوق الإنسان.

والتواصى بالصبر ـ يعنى أداء الواجب وحَمْل كل تبعات الرشْد ..

وتحت حقوق الإنسان يدعَم القرآن والإسلام كل الحقوق من عدْل، ومساواة، وحرية، وسواها.

وتحت واجبات الإنسان، يَدْعَمُ القرآن والإسلام كل

الواجبات من أمانة، وإتقان، واستقامة ، وسواها ..

بيد أن كل حق وكل واجب، يُشبه قطعة من النقــود ذات الوجهين.. فهو حق وواجب معًا ..

فالعدل مثلا حق من حقوق الناس ـ يجب أن ينالوه، وهــو فى نفس الوقت، واجب مِن واجباهم، عليهم أن يُؤَدوه.

ونحن حين نريد أن نظفر بإخاء عالمى ومحبة صادقة، فإنـــه يجب أن يكون هناك تواصٍ عميم بالحقوق والواجبات جميعــًا.. بالحق والصبر كليهما ..

وفى عالم كعالمِنا، مُتعدد الشعوب، كثير الــــدول، مُفْعَـــم بالتناقضات، لابد أن يكون لفضيلة الأخوة قانونـــها.

ولقد صنع الإسلام هذا .

فشَادَ العلاقات بين الأفراد على نَسق قانونى مُحكم .

وشاد العلاقات بين الدول والأمم علـــى نَســق قــانونى مُحكم..

وفى كلا المجالين لم يُخرج الطبيعة الإنســـانية، والطبيعـــة الاجتماعية من دائرة ملاحظته واهتمامه ..

ففى المجال الفردى وضع قانون السلام والإخاء على هـــذا النحو .

﴿ادْفَعْ بِالَّتى هَى أَحْسنُ، فَإِذَا الَّذِى بَيْنَك وبَيْنَهُ عَدَاوةٌ كأنَّه وَلِّىٌّ حَمِيم﴾ .

فإذا عجز الإنسان عن هذا الأمثل والأفضل، وعجز عن مقاومة رغبته المشروعة فى القصاص.. عندئذ ..

﴿فعاقبوا بمثلِ ما عُوقبتم به ـ ولِئن صَبَرْتُم لَهُوَ خيرٌ للصابرين﴾

﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثْلها ـ فمن عَفَا وأصلَحَ فأجرُه على الله ﴾

ويقيم التكافُل بين الناس حتى يتآخوا ويتحابوا

فإذا كنت دائنا لمدين مرُهق ..

﴿فَنظرةٌ إلى مَيْسَرَة، وأنْ تصدَّقُوا خيرٌ لَكُم﴾..

وإذا كنت أميناً على وديعة أو حق ..

﴿فلْيؤدِّ الذى اؤْتُمِنَ أمانته﴾..

وعلى الإنسان أن يَهَبَ الناس حُبَّه وتواضعه وإكبارَه.

﴿لايسخر قومٌ من قومٍ﴾

* * *

﴿ولا تُصعِّر خدَّك للناس﴾

* * *

﴿وقولوا للناس حسنا﴾

* * *

﴿وإذا حُيِّيتُم بتحيَّة فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها﴾

* * *

﴿وإذا قُلتم فاعْدِلوُا . ولو كَانَ ذَا قُربَى﴾

* * *

﴿ولاتَبْخَسُوا النَّاسَ أشيَاءَهُم﴾

* * *

﴿وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربى﴾

﴿ولاتتمنَّوْا ما فضلَّ الله به بعضكُم على بَعْض﴾

﴿ولا تقربوا الفواحشَ، مَا ظَهَر منها وما بَطن﴾

* * *

﴿وعباد الرحمن الذين يَمشون على الأرض هوْنا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا﴾

* * *

وأما مجال العلاقات الدولية فقد صاغ لها هى الأخرى قانونها الذى يحقق إخاء عالميًا وسلامًا دائمًا .

فالدول عادة تتنازع وتحترب حول مناطق النفوذ والثروة.

فليبدأ القرآن بإعلان هذه الحقيقة .

﴿خلق لكم مافى الأرض جميعا﴾

فلكى تكون الحياة للجميع، ينبغى أن تكون مصادر الحيـــاة للجميع أيضا.

فإذا ما أخذت كل أمة نصيبـــها، ووضعتها مقاديرهـــا فى مكانها من الأرض، وحظها من الرزق، فليحترم لكل ذى حـــق حقه ..

وعندئذ :

﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾

والعدوان بكل أشكاله يجب أن يدحض ويشجب..

وإذا كان عدوانا مسلحا، يستهدف قتل النفس وتخريـــب الحياة، فيجب أن يقاوم..

وأسلوب مقاومته ينتظم المراحل التالية:

أولا ـ يطلب من المعتدين أن يكفوا عـــن عدوانـــهم، ويؤثروا تعايشا سلميا صادقا.

﴿لكم دينكم، ولى دين﴾

* * *

﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولاتتبـــع أهواءهم﴾..

﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأُمِرت لأعدل بينكم..

﴿الله ربنا وربكم .. لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.. لا حُجَّة بيننا وبينكم.. الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾

ثانيا - فإن أصرّ المعتدون على عدوانهم المسلّح فعندئذ:

﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلون، بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾..

﴿الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق﴾

ثالثا - فإذا فاء المعتدى إلى رُشده وأعلن رغبته فى الانسحاب أو الصلح.. وجب أن يُجاب إلى رغبته المسالمة حتى لو يكون مخادعا..

﴿وإن جَنَحُوا للسَّلْم فَاجْنَحْ لَهَا وتوكّلْ عَلى الله إنَّهُ هو السميعُ العليمُ..

﴿وإن يُرِيدُوا أن يَخْدَعُوك فإن حسبَك الله، هو الَّذِى أيدَك بنصره وبالمؤمنينَ﴾

* * *

وهكذا يعلم القرآن رسوله، إذا دعوك للسلام فباكرْهم إليه، حتى لو أرادوا بذلك خداعَك، لأن واجبك ألا تضيع فرصة

السلام مهما تكن هذه الفرصة وَهْنانه ومهما يكن الشكّ فى طبيعتها..وبإيثارك السلام، وحفظ الدم المسفوك، فإن الله سيقيك شرّ خداعهم إذا أرادوا أن يخدعوك ..

رابعًا ـ إذا عادوا للقتال، فقاتل، ولكن ليكن قتالك دفاعًا، لا تبتغى به أيًا من أغراض الحياة، ولَيكن موجها ضد الباغى عليك وحده .

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولاتعتدوا﴾

* * *

خامسًا ـ وأما المحايدون فاحترم حيادهم، حتى لو يكونوا من نفس القوم الذين يهاجمونك ويقاتلونك .

﴿..حَصِرَت صُدُورهُم أن يُقاتِلوكم أو يُقاتلوا قومَهم، ولو شاء الله لَسلَّطَهُم عَلَيْكُم فَلقَاتَلوكُم، فإن اعْتزَلُوكُم، فلم يقاتلوكم وألْقَوْا إليكُمُ السّلَم فما جَعَل الله لكُمْ عَلَيّهم سَبِيلاَ﴾

* * *

أما الدول الصديقة، فالقرآن يدعو الرسول إلى توثيق العلاقات بها، مهما يكن اختلاف العقائد والدين..

﴿لاينهاكُمُ الله عن الذّين لم يقاتِلوكم فى الدِّينِ و لم يخرجُوكُمْ مِنَ ديارِكم أن تبرُّوهم وتقسطوا إلِيهمْ إنَّ اللهَ يُحبُّ

المقسِطين﴾

* * *

وأما الآخَرُون الذين ليسوا أصدقاء مسـالمين ولا أعـداء مهاجمين.. وإنما هم يسطون ألسنتهم بالسوء ويديرون حربـاً باردة، ويعبِّرون عن عدائهم بوسائل لاتبلغ حد الهجوم المسـلح فموقف المؤمنين منهم يتمثل فى هذه الآية.

﴿يا أيُّها الذِّين آمنوا، لاتتخِذُوا عَدوى وعدوكم أولياء﴾

وتكشف آية أخرى عن صفتهم فتقول:

﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزوا ولَعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾

حتى حين يدعوهم لتجنُّب الذين يسخرون منهم ويُؤلِّبـون ألسنتهم عليهم، يأمرهم أن يكون هذا التجنُّب فى غـير بغـى يأمرهم أن يتجنبوهم فى رفق وعدْل وتقوى :

﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾

* * *

وفى التطبيق العملى، نجد الرسول محمداً قد عـاش هـذه الآيات..

نجده قد بذل من ذات نفسه فى سبيل الحُب والسلام ماينوء

بحمله بشَر.

فلقد لبث فى مكة ثلاث عشرة سنة كاملة، يلاقـــى كــل صنوف الأذى والاضطهاد والسخرية وهو لايزيد عن أن يقول: "اللهم اغفر لقومى، فإنــهم لايعلمون" .

لم يكن ذلك ضعفا.. فإن الضعيف مهما يكن ضعفه، قادر على أن يلطم خصمه أحيانا، أو يكيد له، أو يثور عليـــه أمـا الرسول، فخلال ثلاث عشرة سنة، لم يلطم إنسانًا لطمــة، ولم يحمل لإنسان ضغْنا.. بل كان يبدو، وكأنه يستمتع بأذى قومـه وخُصومه..

وحين افتقد ليومين أو ثلاثة أيام، ذلك الرجل الذى اعتــاد أن يلوث باب داره كل صباح بروث البــهائم ..

حين افتقده الرسول، وعجب كيف مَضى يومان لم يقترف فيهما فَعْلَته، سأل عنه، فلما علم أن المرض أقعده.. خــفّ إلى داره ليعوده وليدعوا له بالعافية ..!!

ثلاثة عشر عامًا كاملة يقول للذين يشبعونه أذى وعدوانا. ﴿لكمُ دينكُم ولىَ دين﴾ ..!!

وبعد هجرته وأصحابه إلى المدينة، وبعد الحديبية حين بـدا أن قريشا تريد أن تجنح للسلام.. قبل كل شروطها مع فداحــة

هذه الشروط فداحة جعلت المسلمين يضجُّون لقبولها ..

فَعَل الرسول ذلك لأنه يريد السلام.

وحين أحاطت به وبدينه وبأصحابه المؤامرات المدججـــة بالسلاح والغدر، ولم يعد أمامه إلا أحد طريقين ـ المقاومة.. أو الإستسلام لقُوى لاضمير لها.. اختار المقاومة، لأن واجبه يفرض عليه اختيارها .

وعندئذ رسم لنفسه ولأصحابه حـــدود المعركـــة، فـــهى لاتجاوز تلك الأيدى المنقضة بالسلاح من الغزاة الرجال ..

أما ماوراء ذلك، فقد زجر النبى فى حَسْم عـــن أن تقتـــل امرأة، أو طفل، أو شيخ ..

ونهى عن أن يحرق نخل، أو زرع، أو يهدم بيت..

* * *

هكذا فى إيجاز تلقَّى الضمير الإنسانى من القرآن والإســـلام هذه الوثيقة فى قضية الإخاء الإنسانى.. والعلاقات الدولية .

وإنها لتَتلخص فى هذا المبدأ:

(للناس جميعهم السلام، ولاعدوان إلا على الظالمين)

* * *

أما الحقيقة الثالثة، وهى أن"الخير" هو غرض الحياة ومنـــاط

مسئولية الإنسان.. فإن"محمدًا" بهذا يرفع مستوى الحياة الإنسانية كلها إلى كمالِها الميْسور والمَقْدور.

وهو لا يجامل الحياة ولا الإنسان بهذا، بل يحدد لهما طبيعتهما وغرض وجودهما .

والخير لديه إيجابى دائما.. وهو قَرين الإيمان، فالقرآن دائمًا يذكر الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح .

﴿إن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، أولئك هُم خير البَرِيَّة﴾..

والقرآن يخاطب الرسول نفسه قائلا:

﴿فلذلك فادْعُ واستَقم كما أمرت﴾

فالخير الذى يُدعى الناس إلى أن يتبارَوْا فى إحراز حظوظه الوافية إذْ يقول:

﴿فاستَبِقُوا الخيرات﴾

هذا الخير يعنى الاستقامة على الجادّة، وجَعْل تبعات الوجود فى ذِمَّة .

وللخير أيضًا قانونه ..

وإذا كانت أولى تبعات الوجود أن يؤمن برب هذا الوجود وخالقه، فإن هذا الإيمان يقتضيك أن تعبد الله..

وعبادة الله فى التحليل النهائى لاتعنى أكثر من إسداء الخـــير لنفسك. أجل لنفسك أنت..

فالله ـ بداهةً ـ لا ينتفع بصلوات الناس حـــين يصلـــون، ولا بصدقهم حين يصدقون، ولا بأمانتهم حين يكونون أمنـــاء، ولابوفائهم وسخائهم حين يكونون أوفياء، أسخياء.

إنما ينتفع بـــهذا ذووه.. إذْ يزكُّون بكل هـــذه الشـــعائر والفضائل أنفسهم، ويُنَمُّـــون كمـــالهم الإنســـانى، ويؤمنـــون مصايرهم.

والصلاة ـ مثلا ـ ليست سوى لحظات أمْـــن وســـكينة، تتجدد خلالها وتنمو علاقة الإنسان بأعظم قُوى الوجود وخيرها ـ الله رب العالمين .

وشعائر الدين وأخلاقياته، ليست إلا تدريباً لقُوى النفـــس والروح، وزاداً لاغنى عنه للنفس وللروح .

وإن لكل مجتمع أخلاقياته التى يرعاها العـــرف ويحميـــها القانون .

بيد أن المَزِيَّة العظمى لربط الخير والفضيلة بالإيمان تتمثَّل فى أن هذا الربط يجعل الفضيلة ذاتية.. يجعلها جـــزءًا مـــن نفـــس صاحبـــها وحياته، لايستغنى عنها إلا كما يستغنى عن عضو من

أعضاء جسمه ..

أما ربطها بقانون العقوبات، فإنه يجعلها فضيلة اجتماعية. قد يرتبط الانسان بها على كره ..

أجَل.. إن ربط الفضيلة بالله.. يجعلنا نَعيشها..

أما ربطها بالقانون ، فيجعلنا نُعايشُها..

والخير عند الرسول هو وظيفة الإنسان ووظيفة الحياة معا..

ومن ثم فليس هناك أية قوة تستطيع أن تجعل الإنسان غير مُهيّأ لممارسته .

فأفدح خطايا الأرض لاتسلُب الإنسان خيريته إلا لحظة ارتكابها أو إبّان إدْمانها ..

أما بعد أن يأسف ويعتذر إلى الله،ويعقد العزم على مَتاب.

﴿فأولئك يُبدِّلُ اللهُ سيئاتهم حَسَنات﴾

* * *

﴿فمن تاب مِن بعدِ ظُلّمِهِ وأَصْلَحَ فإِنّ اللهَ يتوبُ عَلَيهِ﴾

* * *

﴿واللهُ يُريدُ أنّ يَتُوبَ عَليكم﴾

* * *

والخير بمفهومه هذا.. أى الاستقامة والعمل الصالح

وحمل مسئولية الوجود، يبقى إذا نُحِّى عنه الرياء والمُقَايضة.

ومن ثَمّ قدَّس الإسلام الإخلاص، قائلا:

﴿فاعبد الله مخلصًا له الدين﴾

﴿يُريدونَ وجهَ اللهِ، وأولئك هُمُ المُفلِحُون﴾

* * *

﴿ولا تكونوا كالذينَ خرجُوا من ديارِهم بَطَـــراً ورِئـــاءَ النَّاسْ﴾

* * *

والقرآن حين يقول :

﴿فاستِبقُوا الخيراتِ، إلى الله مَرجعُكُم جميعاً﴾

إنما يضع مَثوبَة الخَير فى أعلى مقام.. فمهما يظفر الخـــيِّرون من ثواب ونجاح فى الدنيا؛ فإن ثوابـــهم عند الله أوفى وأعظم..

ومسئولياتنا عن الحياة الدنيا مرتبطة بمصيرنــــا فى الحيـــاة الآخرة ــ هكذا يقرر القرآن.

إذن هناك خلود يؤمِن به الإسلام... وإذا كان الضمــــير الإنسانى قد استشرق الخلود منذ أيامه الأولى، فـــإن الإســـلام يعرض قضية الخلود، وعقيدة البعث والحياة الأخرى عرضـــــاً سديدًا .

إنه يراها ركنًا من أركان الإيمان.. ولقد أجْـرى القـرآن حواراً باهراً مع منكرى البعث والمؤمنين باستحالته.. فالله: ـ

﴿يبدأ الخلق ثم يُعيدُه، وهُو أهْوَن عليه﴾.

لو أرَينا بذرة"مانجو" لمخلوق، لم ير الأشـجار قـط ولا يعرف عنها شيئاً وقلنا له: إن هذه القطعة المتخشبة الميتة ستُبعث شجرة وارفة مُترعة بالثمر، لصَعُب عليه تصديق ذلك..

ولقد كان الكافرون بالبعث يقفون موقف هذا المخلوق..وكـان بعضهم يأتى بعظام ميت ويقول: أيبعث الله هذا بعدمـا رَمَّ..؟

وكان القرآن يجيبهم :أن: نَعَم .

﴿يُحييها الذى أنشأها أوّلَ مرةٍ﴾..!!!

ويسألهم الله سبحانه:

﴿أفعَيينا بالخَلْقِ الأوَّلِ..؟ بل هم فى لَبْسٍ من خَلْقٍ جديدٍ﴾!!

* * *

أما الحقيقة الرابعة، وهى أن الحياة شـروق متجـدد للمعرفـة والعلم، فإن الاهتمام بـها يبدأ مع أول أمر تلقاه الرسول مـن ربه.

لقد كان : ـ اقرأ ..

كما كانت أول نعمة مَنْ بـها الله على عباده مذكراً إيـاهم

بجميل فضله هى :

﴿الذى عَلّم بالقلمِ، علّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ﴾

ولطالما يُذكّرُ القرآن الناس بأنه لا يستوى الذين يعلمون، والذين لايعلمون.. تمامًا. كما لاتستوى الظلمات والنور .

والعلم لدَى القرآن ليس تفوقاً عقليا فحسب.. بل هو تفوق أخلاقى أيضا ـ فأكثر الناس معرفة بالله وخشية له، هم العلماء .

﴿إنما يخشى اللهَ مِن عبادهِ العلماءُ﴾

﴿وإنما يتذكرّ أولوا الألبابَ﴾

وبهذا أيضا يكشف القرآن عن حقيقة العلم الحق، والمعرفة القديمة.. فليس العلم مُجرَّد تحصيل، وليس العالم بمجرد لقب.. بل هما أن يكون نصيبك من الخير مساويا لحظّك من العلم أو يزيد.

والعلم دائمًا موضع تكريم الله واعتزاز الأنبياء..

﴿وكذلك يَجتبِيكَ ربك ويُعلمك من تأويل الأحاديث﴾

* * *

﴿وإنه لذو عِلمٍ لِمَا علّمناه﴾

﴿خلَق الإنسانَ، علّمَه البيانَ﴾

﴿يتلو عليكم آياتنـــا، ويزكيكـــم، ويعلمكـــم الكتـــاب والحكمة﴾

﴿ذلكما مما علمنى ربى﴾

* * *

ومن القرآن تلقى الضمير الإنسانى أذكى اللفتات واروعـها نحو قيمة المعرفة ومداها .

فالقرآن يثير فى الضمير الإنسانى دائما أشواقه إلى الغيـــب.. وإلى الكون كله، ويقتحم بالعقل الإنسانى أسوار المجهول، ويقيم لوحدة الكون قاعدة من العقل والنظر والاستدلال.

لقد حاولت الفلسفة من قبل أن تعرف حقيقة الشـــمس، والقمر، والأرض ـ وتحدس فى هذا السبيل حدسها المشكور ..

لكن دينا، كل وظيفته كما يحسب الناس، أن يدعو لطاعـة الله، ومكارم الأخلاق.. ما شأنه بالحديث عن طبيعـــة الكـــون وحقائقه.

إنه لعظيم حقا حين يدعو العقل الإنســـانى إلى الغـــوص، والتحليق وراء المعرفة الكونية فى غير إجفال أو تهيب.

و لم يكن المهم يومذاك أن يتحدث القرآن عن تفاصيل هذه الحقائق .

إنما كان المهم أن يُعلن أن بحثها ليس محظورًا.. بل مطلوبًا.. وأن يشجع العقل على تَحدِّى الصمْت. والوجوم أمام الغيْـــب والكوْن.

وفى سبيل هذا عمد إلى الشمس والقمر والأرض، فحـدث الناس عنها حديثاً جديدًا .

فالشمس ليست كوكبًا ثابتًا كما يعتقد الناس بل هى:

﴿تجرى لِمُستقرٍ لها﴾

﴿تجرى لِمُستقرٍ لها﴾

﴿والقمرَ قدَّرْناه منازِل﴾

﴿والسماء ذات البُروج﴾

﴿كلٌّ فى فلَك يَسبْحون﴾

والأرض ليست ثابتة فى مكانـــها ـ اقرأ هذه الآية:

﴿وترى الجبال تحسَبــها جامدة وهى تمرُّ مَـــرَّ الســحاب صُنْعَ اللهِ الذى أتْقَن كل شىء﴾

والسماوات ليست فراغًا، بل إن فى كواكبـــها لمخلوقـات كثيرة .

﴿ومن آياته خلْق السماوات والأرض، ومابثَّ فيهما مـــن دابةً وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾

وفى تعبير القرآن عن السماوات بصيغة الجمع.. مقابل كوكب الأرض بصيغة المفرد ما يشير إلى أن المعنىَّ بالسماوات هنا تلك الكواكب السابحة فى الفضاء الأعلى.

ما معنى ذلك؟ إن ذلك لا يعنى بحال أن القرآن كتاب فلك..ومن ثَمَّ فهو لم يسهب فى هذا المجال.

وإنما معناه أن الأرض على اتساعها ورغم غزارة أسرارها، ليست المجال الوحيد لتطلع الإنسان ونشاط عقله وتفكيره.. بل الكون كله مجال هذا التطلع وهذا التفكير.

﴿إن فى خلق السماوات والأرض، واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولى الألباب﴾.

وعلى الضمير الإنسانى أن يستشرف ..

وعلى العقل الإنسانى أن يفكر ..

عليهما معاً أن يتهيآ لرحلة لاتنتهى إلا حيث يجدان نفسيهما أمام المطْلق الأعظم وجها لوجه.

﴿وأنَّ إلى ربك المنْتَهى﴾

إن الوعى الدينى لقضية المعرفة يبلغ فى القرآن وعند الرسول "محمد عليه السلام" أوْجا فريداً .

ولن نجد دينا أهاب بالعقل وبكل قُوى الذكاء الإنسانى

لكى تأخذ دَوْرها القيادىَ فى موكب الحياة وقافلة البشر،مثلما فعل القرآن ومثلما فعل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

لقد أعلن القرآن أن محمداً خاتم الأنبياء .

لقد أُرسِيت بصورة نهائية قواعد الخير الأسمى والارتقاء الروحى للجنس البشرى كله.

ولقد قال الوحى وقالت النبوَّة كلمتهما الهادية والفاصلة فى كل القِيم التى تُشكل معراج البشرية إلى كمالها المقَدور.

فليتقدم العقل، وليحمل المشعل الذى هيأه له الله، وليذهب ذات اليمين وذات الشمال، باحثاً وفاحصاً منشئاً.

ولكى يتهيأ الضمير الإنسانى لحمل المسئولية كاملة فقد مضى الإسلام يزكى ويدعَم حرية الضمير ..

وفى وضوح كامل بدأ هذا الدَّعْم بإعلانه أن حرية الضمير ليست منحة بل حقا.. وليست نافِلَةً بل ضرورة .

أَجل، فحين أَعلن الإسلام مسئولية الإنسان عن أعماله أعلن فى نفس الوقت ولنفس السبب، حرية ضميره.. إذ أن المسئولية لاتكون إلا حيث يستطيع الإنسان أن يختار.

صحيح أن الإسلام تحدَّث عن القدر الإلهى، وجعل الإيمان به محتوما .

ولكن القدر في مفهومه السوِيّ، لايعني إلغاء الاختيار الإنساني .

فالقدَر أولا، وقبل كل شيء، إنما يتمثَّل في تلك القوانين والسُّنن التي جعلها الله قِياما للكون وللحياة.

ومن هذه القوانين:

﴿ولاتُجزون إلا ماكنتم تعملون﴾

وإنه في الوقت الذي رفع القرآن بيمينه - الإيمان بإرادة الله المطلقة، رفع بيمينه الأخرى - وكلتا يديه يمين - الإيمان بمسئولية الإنسان.

﴿كُلُّ امرئ بما كَسَب رَهين﴾

﴿ولِكُلٍّ درجاتٌ مِمّا عمِلوا﴾

﴿وأنْ ليس للإنسان إلاَّ ما سعَى﴾

وإنه لسدادٌ عظيم أن يعمل الناس في ظل إيمان بقدَر الله، وحقهم في الإرادة والاختيار.

- فحتَّى لايُمارسوا اختيارهم في فوضى وجهالة، يذكرهم القرآن بأن الله قد جعل لكل شيء قدرًا، وأن كل خروج على السُّنَن التي وضعها الله، ليس إلا انزلاقا نحو الهاوية .

- وحتى لا يُمارسوا اختيارهم في غرور وجبروت يذكرهم

بأن لله قَدَراً يستطيع أن يكبح جماح كل غرور وكل جَبروت.

ـ وحتى لايجبنُوا عن مُمارسة اختيارهم، يخبرهم أن سـعيهم فى الحياة مقدور.. إنه قدَر، وهل هناك أقوى من القدَر.. فليتقدم كل إنسان إذن فى طريق حياته يكشف خبْأهُ ويفُضُّ مجهوله وهو فى مثل قوة القدر.. إن القرآن يقول:

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾

فإذا كانت مقاديرنا تنتظرنا على النّسَق الذى أرداتـــه إرادة الله البالغة، فلما نمضى نحو هذه المقادير علـــى وجَـــل.. وهـــل أُخفِيت عن الناس مقادير حياتهم إلا لكى يمارســـوا ذكـــاءهم واختيارهم على أوسع نطاق وأشجعِه ..؟

لقد ترك الله للإنسان مجال نفوذ رحيب يُمارس فيه اختياره الحر الرشيد . وصان من أجل هذا حرية ضميره، فأعلن القـــرآن أنه :ـ

﴿لاإكراه فى الدين.. قد تبيَّن الرُّشْد من الغَىِّ﴾

وكان دائب الحرص على أن يبين وظيفة المرسلين، ويُلْزِمـها بأن تدُخل فى كل حسابـــها، حرية الضمير ومن ثَمَّ، فالرسول ـ كل رسول ـ ليس إلا مُبلِّغا كلمة الله، ومبينًا طريق الرُّشد .

﴿وما أَرسَلنا من رسولٍ إلاَّ بلسانِ قومِه لِيُبَيِّنَ لهم﴾ فاللسان

والقول والكلمة ـ هى أداة البلاغ، ووسيلة الإقناع أما بعد هذا، فـــ ﴿لست عليهم بمسيطر﴾

* * *

﴿إن عليك إلا البلاغ﴾

* * *

﴿وما أنت عليهم بجبار﴾

* * *

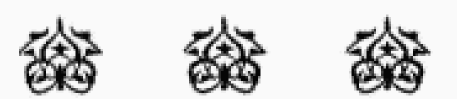
وبعد ..

فهكذا تلقى الضمير الإنسانى آخر كلمات الدين.. الدين كله منذ أول رسول، حتى آخر المرسلين.. ولقد كان لكل رسول منهجه التشريعى الذى يلائم بيئته وعصره. ومجتمعه، لكن الأديان جميعا ليس بينها من تفاوت فى إدراك جوهر الخير، هذا الجوهر الذى تمثل فى القيم العليا التى أجمع عليها الأنبياء، والمصلحون، والبشرية كلها، لقد أفرغ الدين على هذه القيم نورا لايخبو أبدا .

* * *

وذات يوم، رحل محمد عليه السلام عن دنيا الناس، بعد أن رفع ـ عاليا ـ مشعل الهدى والخير، وبعد أن نادى الضمير

والعقل ليأخذا مكانـــهما فى قيادة القافلة الإنسانية، وليحمـــلا المسئولية كلها، فى رعاية الله، وفى هدى كلماته ..



الفصل الثالث

فى عصر العَقــــل

إن كلمة "العقل"هنا، لا تعنى الضِدَّ أو النقيـــض لكلمـــة "الإيمان" ..

و"عصر العقل" الذى نتتبَّعُ رحلة الضمير خلاله، لايعـــنى العصر الذى انفرد وحده، ودون بقية العصور بـــاحترام العقـــل وتحكيمه، كما أنه لايعنى العصر الذى خلا من الإيمان ففى كـــل العصور كان الإيمان والعقل يعملان معاً تارة، ومنفردين تـــارة أخرى، والحضارات الشامخة التى قامت فى المـــاضى البعيـــد فى مصر، وآشور، وبابل، والفرس، والصين والهنـــد، وفى ســـبأ.. كانت الثمار الحلوة لتعاون الإيمان والعقل فى بناء الحياة ..

عصر العقل إذن ـ كما نعنيه ـ هو العصر الذى ســـادت فيه المعرفة التجريبية، العصر الذى يستمدُّ أحكامه من التجربـــة الموضوعية، والذى اقتحم بملاحظاته ومُختبراته مناطق المجـــهول

وكشف أسراره، والذى جعل هدفه، سيطرة الإنســـان علـــى الطبيعة وعلى شئون عالَمه.

ولقد نادى الضميرُ العقل إلى مكان القيادة حـــين أحـــس حاجة الإنسانية إلى كلمته وحِذْقه. وإذا كان الضمير الإنســـانى جديد البصَر بالمقادير الجديدة لبنى الإنسان، فقد أدرك فى الوقت المناسب حاجة البشرية لكل قُوى العقل وكل إنتاجه.

لقد رأينا كيف تَلقّى الضمير من الإسلام ورسوله، هـــذا الدرس.. درس الإهابة بالعقل الإنسانى كى ينظر فى ملكـــوت السماوات والأرض، كى يتقدم ليحمل مسئوليته عن حماية القِيَم العُلْيا ومسئوليته عن بناء الحياة .

وعصر العقل بمفهومه الواسع، لم يـــدأ فى أوربـــا، ولا فى عصر النهضة.. إنما بدأ فى ظِلّ الحضارة الإسلامية بدءًا من القرن السابع الميلادى. بدأ، يوم شرع علماء الإســـلام ومفكـــروه، يُحكّمون العقل حتى فى مقدساتـــهم الدينية .

ثم يوم جاء جابر بن حيان، والخوارزمى، والكندى وثـابت بن قُرّة، والرازى.. يضعون أسس علوم الرياضـــة، والفلـــك، والكيمياء، والجبر، والطب .

يوم كان" ابن الهيثم" ينشئ، ويضع أسُس علـــم الضـــوء

الحديث كله. أيام كان"الفاربى" يشيد"مدينته الفاضلة".. أيـــام كان المعتزلة يحكمون العقل فى النصـــوص المنـــزلة.. وكـــان "إخوان الصفا" يُوجهون حركة العقل فى قوة نحو طبائع الأشياء. ويلخصون منهجهم العلمى فى وجوب معرفة كل شىء عن كـل شىء .

فعن حقيقة الشىء . . . يسألون : ما هو ..؟

وعن مقـــداره . . . يسألون : كم هو ..؟

وعن صفتـــه . . . يسألون : كيف هو..؟

وعن نِسبيَّتـــه . . . يسألون : أى شئ هو ..؟

وعن مكانه أو درجته. . . يسألون: أين هو ..؟

وعن زمانـــه . . . يسألون : متى هو ..؟

وعن عِلّتـــه . . . يسألون : لِمَ هو ..؟

وعن تعريفـــه . . . يسألون : من هو ..؟

وأيام كان"ابن سينا" يشيد فلسفته على أساس من تقديـس العقل، واعتباره أعلى قوى النفس، ويناقس"أرسطو" وفلاســفة الأغريق جميعا مُناقشة النِّد للّند، قائلا:

"إن لنا عقولا كعقولهم" ..!!

ويعلن أن القَدَر الإلهى لايعنى التدخل فى الحيـــاة العاديـــة

للناس، إنما يعنى سلطان القوانين الكونية التى سنّها الخالق العظيم وجريانها فى نواميسها.. ويُحيى إرادة الإنسان وعقله، وينادى بأن مصير البشر رهن بما تستطيع الإرادة والعقل أداءه فى حرية واختيار فيقول :

● ـ"حسبنا ما كُتب من شروح لمذاهب القدماء، وقد آن أن تكون لنا فلسفتنا ورأينا"

وأيام كان"ابن باجَه" يحرر الفلسفة من سيطرة الجدل الأرسطى، ويأخذ بزمامها من التفكير المثالى والخيالى، إلى التفكير العلمى.. وأيام كان هناك"ابن رشد" يصحح أغلاط الفكر، وينمى أرصدته ويعلن أن الحقيقة مُقدسة وأن التقليد عصا العميان، وأن العقل مُعلّم وإمام .

وأيام كان"ابن النفيس" يكشف الدورة الدموية لأول مرة..و"وابن البيطار" يضع أسس علوم النبات..و"البيرونى" يذهل الدنيا بعقليته التى لايكاد التاريخ يعرف لها نظيراً ..

أيامئذ، بدأ عصر العقل.. وكانت البداية رائعة. ومن ثم فقد انتشر نورها.. وظل عصر العقل يتكون وينمو حتى جاءت المرحلة التى بلغ فيها جيشانه العظيم محدثاً فى الحياة الإنسانية تلك التغيرات الكبرى وكان المسرح فى هذه المرحلة ـــ أوربا ..

و لم يلبث العقل إلا قليلا حتى تحول إلى"عِلم" وصار عصــر العقل، عصر العلم، وعَصْر الإنسان أيضا..

وفى هذا العصر سيلاقى الضمير الإنسانى موجات عنيدة من التحدى والتمرد.. بيد أنه لن يكون منها جَزِعاً ولا بـــها يائسا. بل سيحتفظ بـــهدوئه وتفاؤله، مؤمنا بأن العقل الذى من حقـه أن يعرف كل شيء، سيعرف الحق ويهتدى إليه .

وفى عصر العقل هذا ــ عصر التغيرات الكبرى، ســـيبلغ الضمير الإنسانى أمْره، وسيكون العقل أداته فى الإجهاز علـــى الكثير من عوائق التخلُّف البشرى .

ويبدأ عصر العقل فى أوربا ثوَرَاته وجيشانَه ضدَّ الدين.

أو بتعبير أصحَ ضِد التدَيُّن، سيما المسيحىِّ مِنه..

ولقد كان موقفه ذلك ردَّ ـ فعل يكاد يكـــون محتومـا ـ للقرون الكالحة التى انحرفت فيها الكنيسة عن رسالتها، وجعلـت من نفسها"مطرقة" تحطم فى وحشية كل ماهو جميل فى النـــاس وفى الحياة ..

وحسبـــها من خطاياها يومذاك، محاكم التفيش ـ هـــذه المحاكم التى بدأت ضدَّ مسلمى أسبانيا ويَهودها، ثم مـــالبثت أن أدارت وجهها الباسِر وعدوانـــها البشع نحو المسيحيين أنفسهم،

فراحت تقتلهم، وتدفنهم أحياء زاعمة فى سخرية ماجنه، أنها لاتقتلهم وإنما تخلّص أرواحهم ....!!

ولقد تعذّب "الضمير الانسانى" من تلك المشاهد عذاباً أليما.. ولكنه كعادته اتخذ من بلائها مزية عظمى، فصنع من كوارثها آخر مسمار فى نعش "التعصب المنظم" ..

لقد "كان التدين" شيئاً مختلفاً عن "الدين".. وعادت الطقوس والأشكال تأخذ مكان الروح والجوهر .

ولما كان الشك من وسائل العقل، فقد اتجه الشّك أول ما اتجه إلى تلك القوة التى كانت تسيطر على كافة شئون الإنسان وهى قوة رجال الدين وسلطانهم.. وحُمِّلَ الدين فى ضوضاء المعركة أوزار المحترفين الذين يأكلون به، وأوزار الخرافات التى تطفّلت عليه. ولكن الضمير كان رابط الجأش مطمئناً إلى أن تَقْعَ المعركة سيتبدد آخر الأمر، آخذا معه الباطل، وستبقى قضية الإيمان ثابتة ظافرة هادية .

فالشك المستنير لاينال من الإيمان بالله منالا.. ويومئذ كان الفيلسوف الذى جعل شعار العقل والمعرفة "شُكَّ لتعرف".. كان هذا الفيلسوف ـ ديكارت ـ نفسه، يقول أيضا:

ـ "وأجد فى نفسى فكرة عن الله كجوهر لاحدود له..

"خالدٍ ثابتٍ لا يتغير.. عالم بكل شيء.. به خلقت أنا وسائر الأشياء...

"فهل من المعقول أن تنبثق هذه الصفات العظمى الفائقة من الطبيعة الناقصة المحدودة التي أراها فيّ..؟

"فهل من المعقول أن تنبثق هذه الصفات العظمى الفائقة من الطبيعة الناقصة المحدودة التي أراها فيّ..؟

"لقد عَبَرْت الثغرة القائمة بين نفسي، والحقيقة الخارجة عنها، وينبغي أن أُسَلم بوجود الله الكائن الوحيد الأعظم" ..

* * *

إن البشرية في صحوتها، تريد أن تنحي عنها كل ما يقيد روحها، وتريد أن تختار بنفسها شروط حياتها.. أفيضير ذلك الدينَ الحقَّ في شيء..؟؟ كلا.. وإنما يضير السلطات المنتفعة بالدين، ومن ثم نراها تُطارد العقل بتهمة المروق والإلحاد.. ثم بتهمة هدم التقاليد؛ ذلك أنهم يريدون من العقل أن يلبس مُسوحهم، ويتبنى أهواءهم.. يريدون منه أن يتنازل عن كل شكُوكه، واستفساراته، ويلقي بكل ما في جعبته من علامات الاستفهام في قاع المحيط .

ولكن العقل يرفض هذا؛ ولا يتخلّى عن الشك أبدًا، فهل

يجىء اليقين إلا من الشك ..؟

هل اكتشف"سقراط" يقينه إلا حين أخذه الشك فى خرافات قومه ..؟

هل وجد"المسيح" يقينه إلا بعد أن أخذه الشك فى أكاذيب كهنة أورشليم وما حولها ..؟؟

هل وجد"الرسول" يقينه إلا بعد أن أخذه الشك فى ضلال عُبّاد الأصنام فى مكّة ..؟

إن انعدام الشك الذكّى ليس سِمَةَ الهدى بقدر ما هو علاقة انحطاط قُوى الروح والعقل.. وإن عصر العقل يعنى"عصر البرهان".. وكل حقيقة لها برهان لاضيْر عليها من الشك والتساؤل. والضمير الإنسانى يحسُّ المغانم الجليلة التى ستُتاح للبشر حين يتحرر تفكيرهم، وخيالهم، وإرادالهم، وحقهم فى التجربة والاختيار..ولا سبيل لهذا التحرُّر مادام التعصُّب قائماً..

والتعصب لايرحَل، إلا حين يَصير الشك الذكىُّ مُباحاً مشروعاً. وليس فى هذا ما يضير الدين الحق، بل فيه مايدْعَمُه، ذلك أنه إذا كانت مهمة عصر العقل أن يُهيئ الإنسان ليُحْكِم سيطرته على الحياة والطبيعة، فبهذا تقَرُّ عين الدين وينشرح قلب الإيمان .

وإذا كان الوحى قد سار بالعقل طويلا، فقد كان بـــهذا يُعِدُّه للسير بعد ذلك وحده مُزوّداً بالْباقيات الصالحـــات الـــتى غرسَها الوحى فى الضمير. أما عرْقَلَة العقل، وشدّ خُطاه بتلـــك التفسيرات المثبطة فأمر أدرك العقل والضمير أنه مُجاف الديـــن، ومن ثم لم يربطا مصيرهما به ..

لقد كان"جاليليو" صادقًا وهو يقول عام ١٦١٣ فى رسالته إلى الأب"كاستيلى" أستاذ الرياضيات فى"بيزا" :

ـ "إن معرفة الله، واكتشاف الطبيعة ممكنان عـــن طريـــق العقل والرياضيات ..

"ولهذا يجب تفسير الكتب المقدســـة بالأســـلوب الـــذى لايجعلها مُناقضة للنتائج التى تأكدنا منها، وتثبّتنا من صحتها"

وأدرك "سبينوزا" وَجْه الصواب وهو يقول :

ـ "إن الخير الأعظم فى كشف العلاقات التى تربط العقـــل بالطبيعة كلها.. فكلما ازداد العقل معرفة، كان فهمه لغاياتـــه وغايات الطبيعة أفضل.. ومن ثَمَّ يصير أقدر على تحرير نفسه من الأشياء التى فقَدت جدْواها ـ تلك هى الطريقة كلها "..

* * *

وكَما طُورِد العقل بتهمة الإلحاد والمروق، وطُورِد كذلـــك

بتهمة هدم التقاليد الموروثة الفاضلة ..

تُرى، من الذى جعلها تقاليد، وفاضلة..؟؟ أليس هو الضمير والعقل ..؟!

ثم ما هى التقاليد..؟ أليست أسلوب الحياة الذى يَصنعه الناس لأنفسهم خلال اهماكهم جميعاً فى كدْحِهم من أجل العيش، والتقدم والمعرفة ..؟؟

كيف إذن تأخذ صورة واحدة جامدة لاتتغير ، ولا تتطوَّر ...؟؟!!

ألا إنه كم من تقليد فاضل، لم يصر تقليداً، ولا فاضلا إلا بعد أن أخذ مكانَ تقليد آخر سَبقه، كان هو الآخر فاضلا ..!!

سيشك العقل إذن فى كل ما يحلو له أن يتعرف إليه بشكوكه .. وصحيح أنه سيَجْنَحُ بشكوكه أحياناً للمبالَغة المُسْرفة والتطرف الوعر.. ولكن، رغم هذا لَن تقدر تِلالُ شكوكه على أن تطمر تحت ترابها حقيقة واحدة.

بل ستخرج الحقائق من هذا الاختيار العسير أكثر ألقاً، وأشدَّ تماسُكا .

وصحيح أن عصر العقل سيقترف نفس الخطأ الذى جاء ليُصلحه.. فسوف نراه يُغالى فى تقدير منهجه وأدواته.. سنراه

يُسرف فى إصدار أحكام نـــهائية بينما هو يستمدُّ بصيرته مـــن عدم ارتياحه للأحكام النهائية ..!!

سنراه يتورط، فيخلع"المُطْلَقات" على أشياء نسبيَّة، ويَمنــح "الدَّيْمومَة" لعمليات زمنية زائلة.. بيد أنه رغم هذا، ستَبقْى لـــه مزيته التى ستحميه من هذا الخطأ وتردُّده عنه.. هذه المزيَّة المتمثّلة فى إيمانه بأن الذكاء الإنسانى هو الذى يأخذ على عاتقــه حــلَّ مشكلاتنا.. وهنا يردد ـ طاغور ـ إحدى أناشيد الضمير العذبــة المضيئة ..

ـ "... إن الكمال شىء وراء طاقتنا، إنه يعـــنى النهايــة.. ونحن أبداً فى سفرنا الطويل نحاول الاقتراب من غاية تبتعد عنـــا دوْماً.. إننا على كثرة ما معنا من معرفة وخبرة، لانعرف عـــن أسرار الحياة إلاَّ النـــزر اليَسير.."ومع هذا فإننا نملك القدرة على الإبداع والخلق، لأن فينا قَبساً من روح الله، الخلاق العظيم" .

* * *

وللذكاء خطره ..

ومن ثَمَّ فإن وضَع الزمام فى يده يزيد من التبعات الملْقـــاة على الضمير، ويدعوه لمضاعفة يقظته وحراسته .

وفى عصر العقل، تعرضت العلاقات بين الضمير والعقـــل

إلى توترات وأزمات كثيرة... بيد أنها فى النهاية كانت ولاتزال تنتهى إلى وفاق رائع ومكين .

إن فترة الجيشان المرتفع فى عصر العقل، كانت مظهرًا واضحاً لإرادة الضمير فى تغيير وجه الحياة تغييرًا تتحقق فيه وخلالَه كل المبادئ التى نادت عَبْر القرون بهذا التغيير، وصاغَتْ بعض نماذجه ..

من أجل هذا، سنرى الضمير الإنسانى يحوِّل تلك المبادئ والأحتياجات إلى قوات اجتماعية، وَحْدَات مقُاتلة تخوض المعارك لتُحرزَ انتصارات نهائية ضد قوى التخلف والبلى .

وتدور محاولات الضمير حول المعيار الذى اختارَه ليطابق به بين الناس والحياة .

وكان هذا المعيار متمثلا فى الحرية، والعدل، لقد شهد عصر العقل هذا فى ضُحاه المحتدِم الجيَّاش... شهد جميع "الإنسانيات" التى أحرزها الوعى الإنسانى طوال الأحقاب والقرون، تنطلق فى مهرجان حافل فَتَنطَلق معها مقادير التطور وقواه من مكانها، وتملأ حياة البشر بتغاريد المستقبل الواعِد .

واتَخذَت هذه "الإنسانيات" من الحرية والعدل قاعدتها، ومنطقها وشريانها .

فباسم الحرية والعدل، ستهب الطلائع الظافرة لتتخلص من الإقطاع، ومن الاستعمار، ومن تجارة الرقيق ..

وباسم الحرية والعدل، ستقوم الثورات من أجل حقـــوق الإنسان .

وستقرر حرية الضمير، وحرية الإرادة، وحريـــة الفكـــر، وحرية الاختيار .

وستتوالى مَوْجات الجيشان الذكى الواعى، فتقاوم سـيطرة الاحتكار والثَّراء غير المشروع، وتدفع الجماهــير الكادحــة إلى مستوى كدْحها وَحقّها، وتبزغ الديمقراطية حاملة معها مشـيئة الضمير فى تكريم الجمُوع الإنسانية بجعلــها مصــدر الحكــم، وصانِعة الحياة .

ويصير احترام الشخصية البشــرية وتقديــس حقوقــها وواجباتها، هو جُماع الخير وذروة الفضيلة .

وسيكون للفلسفة بلاؤها العظيم، ودورها الجليل فى التعبير عن مشيئة الضمير وإنجاز مَهامّه .

لقد أعلنت الفلسفة أن الشئون الإنسانية كلها هى موضوع الفكر الإنسانى ومَجْلى نشاطه.. ومادام الفكر هو الأَداة، وهــو الوسيلة، فلا مَناص من أن تتوفر له الحرية الكافية لتكوين مادّته،

وإلقاء كلمته .

ولئن كان"كونفشيوس" قد قال قبل الميلاد بخمسمائة عام:

ـ"إنى لاأملك لك شيئاً، إذا كنت لاتستطيع أن تقول.. هذا رأيى"...، فإن الضمير فى عصر العقل خاصّة يجعل من هذه العبارة نهجاً مقدساً، وهكذا رأيناه يدفع كل حكمة العصر إلى دَعْم هذا الحق الجليل .

فليرفع "مونتين" صوته عالياً :

● ـ "علينا أن نفحص كل شىء، وألا نُدخل عقولنا شيئًا لمجرد أنه عُرفٌ مُقرر ..

"علينا ألا نعتنق مبادئ أرسطو، أو الرواقيين، أو الأبيقوريين دون أن نفحصها ونختار منها ..

"إن من يتبع الآخرين بغير هُدَى من تفكيره واقتناعه لايتبع شيئاً، ولا يعثر على شىء ..

"نحن لسنا رعايا مِلِك، فدَعوا كل واحد منا يطالب بحريته..

"إن الصدق والمنطق حق لكل إنسان، وليسا مِلْكاً خالصاً لمن ينطق بهما لأول مرة. إنما هما مِلْك لكل من يَقدر عليهما..

"إن النحل تمتصُّ الشهد من هذه الزهرة ومن تلك، ثم تخرج من بطونها شرابها هي.. وشَهدها هي ..

"ألا وإنا لنجعل من عقل الإنسان شيئًا خسيسًا وجبانًا إذا لم نسمح له بحرية الابتكار والإبداع"..!!!

* * *

وإذا كانت الإراء البنَّاءة المُضيئة لاتوجد على قارعة الطريق، فلابد للبشرية أن تقرأ كثيرًا، وتعرف كثيرًا فمسئولية البشر تجاه بناء حياتهم، لا يضاهيها سوى مسئوليتهم تجاه تزويد عقولهم بالمعرفة الصحيحة .

وهنا يتحدث "برجسون" .

● ـ "يجب أن يبتدئ كل واحد منا كما بدأ الجنس البشرى بذلك الطموح النبيل لمعرفة كل شيء.. فهنا على وجه التحديد يكمن الفارق بين الفكر والغريزة... بين الإنسان والحيوان ..

"إن الحيوان يستطيع أن يفعل شيئًا واحدًا بشكل يثير إعجابنا، ولكنه لايستطيع أن يصنع شيئًا آخر سواه" .

* * *

أَجَلْ.. إن فقدان التنوُّع ليس مزية إلا لحياة السوائم وحدها، لأن الغريزة ، لا العقل هى التى تقودها .

أما الإنسان، هذا الذى أعطاه الخالق الجليل عقلا لاتنتهى عجائبه، فإنه مهما يجنح به التخصُّص إلى جانب من جوانب المعرفة يظل قادراً على أن يُدير خواطره على كل شىء، ويصنع بعقله المعجزات ..

وإذا كان عصر العقل هذا، لن يدعَ حجرًا من حجارة الأرض حتى يعرف فصيلته وعمره فى التاريخ... وإذا كان لن يدَع بحرا، ولا نهرًا دون أن يعرف نوع أسماكه وطَحالِبه.. وإذا كان لن يدَع الفضاء سرًّا مخبوءًا دون أن يعرف عدد نجومه، ويتعرَّف إلى سكان كواكبه... فإنه من باب أولى، لن يدع أفكاره وآراءه، وعقائده تُمْلَى عليه، ولن يدَع حقّه فى تكوين اقْتناعه، والبحث عن الحقيقة يخضع لأى تأثير.

وهكذا، وفى القرن السابع عشر، تصبح كلمات "ملتون" على كل لسان .

● ـ أطلقوا رياح جميع العقائد والأفكار لتعْدُوَ على وجه الأرض، ولتْكُن الحقيقة بينهما فى المعركة؛ فإننا إذا حظرنا لها، وتحكمنا فيها نرتكب إثماً ونصنع أذى كبيرًا .

"دعوها تتصارع مع الكذب.. فهل رأى أحدُكمُ الحقيقة يوماً قد خسرت قضيتها فى صراع حُرٍّ مكشوف ..؟!

* * *

إن الضمير يُجنّد كل الذكاء يومذاك لكى يحرر الفكر من كل سيطرة ووصاية. لاسيَّما وصاية الكنيسة التى كان لها على العقل سلطان باطش.

إنه يرفع لواء حرية الفكر، وحرية القول، لأنه بهذا سيذهب الموكب البشرى إلى غايته البعيدة فى خَطْو ثابت ظافر.

وإنه ليريد ألاَّ يعتمد رأى مَّا على القَهر والتحدِّى؛ لأن كل فكرة وكل عقيدة تعتمد فى إثبات وجودها على القَهْر والإرْغام، فإنها تحكُم على نفسها بأن حظها من العقل، ومن الصواب ضئيل، بل مفقود .

ثم إن حرية الضمير التى تتمثّل فى أن تكون هناك حُرُمات مصُونة لحق الاختيار، وحق الاقتناع، هذه الحرية تَضْحى هَبَاءً حين يكون ثَمَّت نُظم أو عقائد تُصِرُّ على أن تفرض نُفوذها قسرًا وإكراها .

وهكذا يجىء "جيفرسون" ليقول :

- _ "عندما مَنَحَ الله آدم العقل، أعطاه الحرية ليختار؛ لأن

العقل هو الاختيار.

إن الحقيقة والإدراك، ليستا سِلعتين تخضعان للاحتكار وتُوزَّعان بالبطاقات .

"ألا فأَعْطِنى جميع حرياتى غير منقوصة، ولكن أعطنى حرية الضمير أوَّلا..

"ألاَ واعلموا أننى عاهدتُ الله الكبير على أن أعادى إلى الأبد كل صورة من صُوَر الاستبداد بعقول الناس وضمائرهم..!!"

* * *

ويرتفع صوت "فولتير"..

ـ "إن الذى يقول لك اليوم: اعتقد ما أعتقده، وإلاَّ لعنَك الله. سيقول لك غدا: اعتقد ما أعتقده؛ وإلاَّ قَتلْتُك .

ولَن يسودَ سلام على الأرض قبل أن يتعلَّم البشرَ كيف يتسامحون، بعضهم تجاه بعض فى كل خلافاتهم السياسية، والفلسفية، والدينية "..!!!

* * *

لقد عبَّر عشرات من الفلاسفة والمفكرين فى تلك الأيام عن تصميم الضمير على أن يُنحِّى عن الإرادة الإنسانية والفكر

الإنسانى كل الضواغط التى تَحْتَبِس رُؤاهما وتعتاق سيرهما.

وأفضى ذلك إلى التصادم مع قُوى كثيرة كـــانت تَبْـــهظ كاهل الإرادة والفكر.. وتَمَّ الفوز للضمير فى جميع المعارك .

أما سيطرة الكهنوت، فقد تقلصت، وتقرر حق الإنسان فى أن يختار دينه ومذهبه .

وأما سَيطرة الأباطرة والمستبدين، فقد رفـــع الضمـــير فى وجهها حق الجماهير، وناداها إلى موعدها مع الحياة .

ولقد بدأ الضمير عمله الثَّورى من أجل الجُمـــوع الهائلـــة المغلوبة على أمرها باختيار المفكر الذى سيضع لثورات التحريـــر السياسى فِقْهها ومَنْطقَها الغلاب .

وكان "روسُّو" ...

كان مؤلف "العقد الاجتماعى" ..

كذلك اختار الرجل الذى سيضع لتلك الثورات أناشـيدها المحركة المجلجلة .

كان "توم بين"، مؤلف"الفهم" و"حقوق الإنسان" ..

* * *

ولقد تحدث"روسو" طويلا، وكان عقلا بارعا وهو يُحـول حرية الإنسان إلى فقه وقانون ـ ها هو ذا يتحدث :

• ـ "إذا بحثنا عن القاعدة التى يتحقق بـــها كل الخير لكل الناس، والتى يجب أن تستمد منها كل القوانين، ألفينـــا هـــذه القاعدة تتكون من أمرين مقدسين: الحرية، والمساواة ..

"الحرية، لأن كل تبعية خاصة، لاتعنى نقصًا فى نفوذ مـــن سلبت حريته فحسب، بل نقصًا فى نفوذ الدولة نفسها ..

"والمساواة، لأنه لاوُجود للحرية بدونـــها..

"وأنا أعرف الحرية بأنـــها الحقيقة التى تجعل الإنسان سـيد نفسه فى ظل القوانين العادلة التى يضعــــها النـــاس بأنفســـهم لأنفسهم..

"والمساواة ليست هى الشىء الذى يجعل الناس ســـواء فى درجات السلطة والثراء ـ بل هى ألا تجاوز السلطة حدود العـدل فتظلم ، أو تتخطى القوانين فتستبد .

"وهى أيضاً، ألا تكون هناك قلة تملك من الثراء ما تستطيع أن تشترى به مواطنين، كل ذنبهم أنـــهم خلقوا فقراء .."

* * *

والحرية أكثر قداسة من أن تكون مجرد حق شخصى .

ومن ثم فهى ليست ممتنعة عن إرادة سلبــها فحسب، بــل وممتنعة عن إرادة التنازل عنها أيضًا .

فلا يستطيع إنسان ما أن يتنازل عن حريته طائعًا .

وفى هذا يقول"روسو" أو يقول الضمير الإنسانى على لسان "روسو":

- "إن تنازل الإنسان عن حريته، يعنى تنازله عن صفـــة الإنسان فيه.. ويعنى تنازله عن كل ما له من حق، وما عليه مــن واجب ..

"وتنازل كهذا يفقد صاحبه الحق فى أى تعويض..

"وتنازل كهذا يناقض كل طبيعة الإنسان.

"ونـــزع الحرية، من إرادة الإنسان يعنى نـــزع كل فضيلة من أعماله..

"وإنه لعهد باطل، كل عهد يجيز قيام سلطان مطلق مـــن ناحية، وطاعة لاحد لها من ناحية أخرى "

* * *

وهذه القاعدة المتمثلة فى الحرية والمساواة لا يترك مصيرهـا للأريحية، أو الهوى، بل يجب أن ينتظمها عهد ويحميها القانون .

والعهد الذى تشترك فيه الحكومة والشـــعب، لا يعطـى الحكومة أى امتياز يجعلها فوق الأمة أو فوق القانون .

والآن، مع "روسو" مرة أخرى .

● ـ "إن كل عهد سيادة ـ أعنى العقد الذى أثمرته الإرادة العامة للشعب، ليس عقدًا بين الأعلى والأدنى .. بل هو عقد بين أطراف متكافئة، لأن الإرادة العامة لكل المواطنين، هى التى صاغته والتزمته ".

* * *

والقوانين يسنها الشعب بأجمعه عن طريق ممثليه المختارين واقتراعه الحر ــ وبذلك يتوفر لها الصلاح والتوقير.

● ـ "إن جميع الشعب إذا سن القوانين من أجل جميع الشعب، لم ينظر حينئذ إلا إلى نفسه ومصلحته .

"وما دام غرض القانون عاما، فلا ينبغى أن يكون واضعه فردا، ولا أن تكون غاياته شخصية .

"وليس معنى هذا أن القانون الذى يضعه الشعب لن يعترف بوجود امتيازات.

"كلاـ ستكون هناك امتيازات.. ولكن لن ينعم بها على شخص باسمه، ولا على طبقة بذويها".

* * *

هكذا تحدث "روسو".

والقوانين التى تنبلج من مثل هذا العقد، والتى يضعها ممثلون

مختارون من الشعب لها قداسة تجعل تخطىً الحكومة لهــا عمــلا خطير العواقب، ولكى تظل ســيادة القــانون قائمــة ينـادى "روسو"بضرورة الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية.

● ـ "لا ينبغى لمن يحكم، أن يضع القــانون.. ولاينبغــى لواضع القانون أن يكون هو الحاكم.. فإذا صـــارت الســلطة تنفيذية وتشريعية معاً، يصبح القانون فى خدمة الهوى، وليس فى خدمة المصلحة العامة ..

"إن روما وهى فى أزهى عصورها شهدت انقضاض كـــل عواقب الطغيان عليها، واستسلمت فى عجــز لقــوى الإبــادة والتخريب، وذلك لجمعها السلطة التشريعية والتنفيذية فى بضــع أيد حاكمة ـ".

* * *

ويرى"روسو" أن الحكومة والشعب يحتاجان إلى وظيفـــة سياسية لها خطرها وفائدها. ويسميها"المحاماة عن الشعب" ويعنى بـــها ـ "المعارضة" التى يشترط أن تكون نــزيهة وأمينــة، وألا تجعل اقتناص الحكم غرض حياتــها أبدًا..لأنــها إذا أدركــت جلال مسعاها علمت أنها أعظم من الحكومة..!!

بل إن"روسو" ليبالغ فى فرض التبتل على المعارضة فيعلــن

أنــها لاحق لها فى الحكم ، ولا فى سن القوانين..!!

ما عملها إذن ..؟

إنــها حارس البرج.. إنــها الديدبــان الــذى يــهاجم الأخطاء وينادى الحكومة والشعب إلى واجباتهما .

ها هو ذا"روسو" يقول :

● ـ ".. وليست ـ المحاماة عن الشعب ـ قســما مكونــا للمدينة، أو الدولة ـ :ولا ينبغى أن يكون لها نصيب فى الســلطة التشريعية، أو فى السلطة التنفيذية، ومع هذا، فإنــها صاحبــة سلطان عظيم، وسلطانــها لا يتمثل فى الفعل، وإنما يتمثــل فى المنع، فهى قادرة على منع كل خطأ. وهى كمدافعة عن القوانين تعتبر أقدس وأجل من الأمير ومن الحكومة معًا"..!!

* * *

ويمضى "روسو" فى تعبيره عن مشيئة الضمــير الإنســانى واضعًا تصميم الحريــات السياســية والحكومــات الصالحــة، والمجتمعات القوية.

ولئن كانت أفكاره قد خضع بعضها فيما بعد لتعديــلات كثيرة وضرورية، إلا أن جوهر تلك الأفكار عاش وسيظل ناصع الحجة باقى الصواب.

ويدوى صوت "توم بين" مبلغًا إرادة الحياة.

• ـ وإذا كان للحياة الإنسانية أى معنى فهو هنـــاك ـ فى كرامة الكائن البشرى".

• ـ "والآن يامن، يا مـــن تحبـــون الجنـــس البشـــرى، انـــهضوا.

" إن الضغط والاضطهاد ليعصفان بكـــل بقـــاع العـــالَم القديم..

"إن الحرية لَتُطارَدُ حول الكرة الأرضية كلها، فهيا استقبلوا الطريدة اللاجئة..؟؟؟

أى معنى للحياة الإنسانية إذن، إذا صارت الحرية طريـــدة ولاجئة..؟؟!!

ألا تصبح كل الحياة وكل أحيائـــها الأناسِـــىِّ فى خطـــر وبيل..؟

لابد إذن من مُواجهة حاسمة.

لابد أن تُذعِن كل القلاع العتيقة المزمِنَـــه فى عداوتـــها للحرية، لابد من أن تُذعن لكلمة الضمير.. وتفســـح الطريـــق للعالَم الجديد المُقبل.

أرافِضةٌ هى أن تُذعِن ..؟

أمصمّمة هى على البقاء وقد فات أوانها، وجاء أجلهُا..؟، فلتَذق إذن وَبالَ أمرها ..

وهكذا، ومع هذه الرياح الصادحة، نـهضت الثورتـان الكبيرتان ـ ثورة الحرية فى أمريكا.. وثورة حقوق الانسـان فى فرنسا.. وهبَّت بعدهما ثورات التحرير فى كل مكان...!!

• ـ "لو تأكد لى أن تسعمائة وتسعين أمريكياً من كـل ألف سيهلكون فى ـ "الحرب من أجل الحرية" لأعطيت صوتـى لنخوض تلك الحرب؛ إن ذلك أفضل لَدَىَّ من أن أرى بـلادى مستعبدة ..

"وإنى لأعلم أن الذين سيعيشون بعد هذه الحـرب ـ وإن يكونوا قِلّة ـ ستولَدُ منهم أمة الأحرار" ...!!!

هكذا تحدث"آدمز" أحد زعماء ثورة الاستقلال فى أمريكا.

وتمثلت فى كلماته هذه الخُطَّة التى آثرها الضمير يومذاك:

ـ "الحرب من أجل الحرية" ..!!

الحرب التى تِلَدُ أحداثها عالَمًا من الأحرار..!!

لقد كانت هذه الكلمات شعار تلك الأيام: وشعار العصر الذى أهلّت معه عصور الحرية جميعا.. الشعَّار الذى سيدعو كل أمة أن تحارب من أجل حريتها .

ولكن ، أو لم يكن ثمت سبيل لإدراك الحرية غير سـبيل القتال ..؟

وأين دعوة الضمير الإنسانى للمحبة وحرصه على السلام..؟

فى تلك العصور البعيدة لم يكن ثمت سبيل للحرية بغير القتال.

وكل قتال تفرضه الأحداث للدفاع عن حقوق الحياة، فهو عملية جراحية لابد منها لكى تدوم للسلام عافيته ونموه.

والضمير، حين أثار الشعوب ضد الجاثمين فوق مقاديرها والمستبدين بمصايرها، كان يدرك أن المعارك ستبلغ من الضراوة مدّاها.. ومع هذا، فما كان ثمت سَبيل أخرى لِوَصْل الجموع التائهة بمستقبلها ..

ها هو ذا ـ توم بين ـ يعّبر عن موقف الضمير الإنسانى تجاه مبدأ"الحرب من أجل الحرية" ، فيقول :

- ـ "أنا أكره الحرب..

"إنها أسوأ الطرق لإبقاء الإنسان فى هاوية المهانة، ولجعله وحشاً ضاريًا ..

"ولست أكره شيئًا على الأرض، مثل كراهيتى للحرب..

"وإن جميع كنوز العالم فيما أعتقد، ليس فى استطاعتها أن تغرينى بتأييد حرب عدوانية؛ لأنى أرى ذلك قتلا وإزهاق أرواح..

"ولكن، إذا اقتحم لص بيتى، وأحرق أو أتلف ممتلكاتى. وهدَّد حياتى، ثم طوَّقنى بإرادته المطلقة، فهل يُطلب إلىّ أن أصدَع بأمره ..؟؟

"كلا .."

* * *

تلك هى القضية إذن.. إذا اقتحم لص بيتك وعاثَ فيه فساداً، ووضع عنقك تحت حدِّ خِنجره أو فوهة مسدسه، فلا مفر من أن تنهض على قدميك، وتقاتل كرجُل..

ولقد كان الاستعمار هو اللص الذى يقتحم الأوطان .

وكان الطغيان ، هو اللص الذى يقتحم الأرواح .

ولم يكن من المقاومة بُدّ .

ولم تكن تلك المقاومة لحساب جيل من الناس، أو أمة من الأمم .. بل كانت لحساب المصير الإنسانى كله .

- ـ"إن هذا لنا جميعًا..ولأولادنا مِن بعدنا .. فنحن الطليعة.. وليس ما ننهض به اليوم سوى بناء عالم جديد.."

هكذا قال "توم بين" ..

* * *

وهكذا شَرَع الضمير الإنسانى يبنى العالَم الجديد.

وصَحا أحرار القلوب فى كل مكان .

وأخذت أبراج الحرية تتبادل الإشارات المُضيئة.

والْتقت الرُؤَى بالحقائق فى كدْح نبيل، ومُخاطرات حافِلَة.

وتنادَت الشعوب المقهورة، والجموع المستعبدة ..

ـ "هيا يارجال، إن هذا لنا جميعًا.. ولأبنائنا مِن بَعدنا ـ "

والْتقى الَجمعان..

الجمع الذى يحمل من المستقبل تفويضاً ليتحـــدث باسمـــه ويضرب بساعده .

والجمع الذى جعلتهم ظروفهم التَعِسَة سدَنَةَ لهياكل كـــل التخلف وأطلال التسلُط .

وقامت الثورات، لامعلنة حقوق مواطنيها فحسب.. بـــل حقوق الإنسان جميعًا، وحق الناس كلهم فى السعادة والحريـــة والكرامة .

قامت ثورة الاستقلال فى الولايات المتحدة.

وثورة حقوق الإنسان فى فرنسا.

وثورات أوربا والأرضى المنخفضة ..

وبعد حين، يجىء ماركس، فيضع مع صاحبه أنجلز ميثـــاق ثورة كبرى من طراز جديد تندلع حين يجىء ميقاتـــها فى روسيا القيصرية لتبنى فوق أنقاضها "اتحاد السوفيت"..

ويظهر فى الشرق "إعصارٌ مبارك" يبذر الثـــورة فى كـــل مكان وتتحول أنفاسه الحارّة إلى عواصف وبراكين، ويبـــثّ فى وعى الجماهير ألغامه الموقوتة التى ستتفجر فى حينها المحتوم .

ذلكم هو"جمال الدين الأفغانى" رجل من أكفـــأ الثـــوار، وأكثرهم مضاء واقتداراً .!!

* * *

ولقد كان من الطبيعى أن يكون لأكثر تلـــك الثـــورات أخطاؤها وإسرافها، بيد أن الغرض التاريخى الـــذى أســـهمت جميعها فى إنجازه كان عظيما بقدر ما كان ضروريًا .

* * *

والآن، لنقف طويلا مع تلك الحقبة المباركة الـــتى حشـــد الضمير الإنسانى خلالها كل رشده وعزمه ليضع ختامـــاً حـــافلا لمأساة الرقيق :

إنسان يشترى إنسانًا آخر مثله..يدفع فيه قدراً من المـــال

لتاجر شقي يسرق الناس ليبيعهم، أو يشتريهم من آخرين في مثل شِقْوَتِه..؟؟

وتبلغ المأساة ذروة بشاعتها، أو قولـــوا سَـــفح البشَـــاعة وحضيضها، حين تسن القوانين الدولية التي تنظم تجارة الرقيـــق، وتجعل منها عملا مشروعا..!! وحين تصـــير لبعـــض الملـــوك والملكات في أوربا"أساطيل بحرية" تعمل في خدمة تجارة الرقيـــق لقاء أجور مرتفعة وأرباح طائلة..!!!

أي انحدار للبشرية..؟

وأين عزم الضمير الإنساني..؟؟

إن محاولاته النبيلة عبر القرون المديدة تجد آخر الأمر ختامها الحافل والحاسم .

وسيتمثل ذلك أولا في إحدى رَوائع الفكر الإنساني.

وسيتمثل ثانيا في ـ "الحرب من أجل الحرية" فتقوم حـــرب أهلية من أجل الرقيق في بلاد سيبقى لها شـــرف هـــذا العمـــل الجليل.

أما الفكر الذي سيختاره الضمير هذه المرة لإبلاغ كلمتـــه ـ فصاحبه سيدة.. تعالَوْا نَنْحَنِ في إجلال قبل أن ننطق اسمها .. إنـــها"هرييت بِيتْشَرستاو" ..

إنـــها مؤلفة"كوخ العم توم" ..!!

إنـــها ستتحدث.. وسيوحى الضمير إليها بكـــل تجربتـه المضنية مع هذا الوباء ليُشعل بكلماتـــها النار المقدسة فى كـــل قلب بشرى، حتى يطهر الأرض من شرٍّ أوزاره وخطاياه ..

سوف تضع السيدة "ستاو" على ألسنة أبطال قصتها كـــل وقائع المأساة البشعة ـــ مأساة الرق فى كل عصوره ومرارتــــه، وسترسم الخلاص الوديع الطّيب .

والآن. إلى أبطال كوخ العم توم لتسمع من حوارهم وثيقة من أبلغ وثائق الضمير الإنسانى .

● ـ "..أنا أعلم ياجورج أنك مازلت مُتحسراً على عملك الذى فقدته، كما أعلم أن لك سيداً قاسياً لاتعرف الرحمـــة إلى قلبه سبيلا، ومع هذا فلابد من أن تصبر ..

ـ "أصبر..؟؟ تقولين. أصبر..؟؟ ألَم أكُ صابراً طِوالَ هـــذا الشقاء ..؟

"بلى، كنت صابراً ياجورج، وإنه لأمر فظيـــع . ولكـــن الرجل على أية حال سيدك "

ـ "تقولين سَيِّدى..؟! ومَن الذى جعلَه سيدى ..؟! ذلـــك ما يقضُّ مضجعى..! أى حق له علىّ..؟ أنا إنسان بقدر ما هـــو

إنسان، بل أنا إنسان خير منه؛ فأنا أعلم منه بالتجارة، وبالقراءة، والكتابة.. ولقد تعلّمتُ ذلك كله بنفسى، ولم يكن له أىُّ فضل علىّ فى هذا.. بل لقد تعلّمت على الرَّغم منه.. والآن فبأىّ حـق يَنتزعنى من عملى، ويحملنى على القيام بأعمال يســـتطيع أى ـ حصان ـ أن يقوم بــها ".؟!

ويفاجأ ـ تُوم ـ .. ببيع سيده له ليقضى بثمنه ديونًا آخــذة بخناقه ..

ولكن، كيف يُباع تُوم، وقد صار جزاءًا من تاريخ هـــذا البيت وهذه العائلة، وهذه الولاية ..؟

وتقول له زوجته :

- ـ "على أية حال ياتوم، فأنا لاأستطيع ألاّ ألوم السّــيد عَلى بيعه إيَّاك" ..

ويجيبـــها توم ..

ـ "إذا كنت تحبيننى حقًا، فلا تذكُرى"السيد" بسوء.. ألَــم أحمله على صدْرى وهو طفل صغير..؟؟" هذا هو وفاء وحُـــبُّ وأدَبُ الذين كتب عليهم أن يكونوا رقيقاً وعبيداً ..!!

أهناك ما يُصور عظمَتهم المخبوءة مثل هذه العبــارة الــتى كشفت بــها السيدة "ستاو" نفسية توم الممتلئة بــهاء ووفـــاء

وعظمة..!؟

ولكن "تُوم" يُصَفَّدُ بالأغلال تـهيئةً لِشَحْنه فى ركـاب سيده الجديد، وتقف زوجه وطِفلاه ينتحبون .

وإذ هو مع سيده فى الطريق، يميل به السيد ليعقد صفقـة أخرى كان على مَوعْد معها .

وكانت الصفقة طفلا، ولا يكاد التاجر يمد إليه يده بالحبال ليربطه حتى تتهاوَى فوقه أمّه الوالهة، وهى تتضرع إلى التـاجر لا من أجل أن يترك لها ولدها، فذاك شىء بعيد المَنال.. بل مـن أجل يربطها بنفس الحبال التى يربطه بـها حتى لايفرق بينـها وبين فلذة كبدها ..!!!

● ـ "ضعنا نحن الاثنين معًا.. ضعنا معًا من فضلك أيـها السيد..أتوسَّل إليك؛إنه طفلى الأخير الذى بقى لى من الحياة"..

ولايملك توم إلا أن يبكى.

إن حياة الرقيق إذا سميت من باب المغالطة"حياة".. لهى من السُّوء بحيث يصعب وَصفها.

لكن مؤلفة"كوخ العم توم" استطاعت أن ترسم على ألسنة أبطالها مشاهد مبكية ومُفجعة لهذه الحياة، بل إنـها لتؤكـد أن دورها لم يزد على تسجيل ما كانت ترى وما كانت تسـمع فى

دنيا الرقيق .

لقد استطاعت فى إخلاص وبراعة أن تُقْلِق ضمائر النـــاس بتلك الملامح التى رسمتها المأساة .

لقد كان "الضيَّاع" هو المُرادف الصحيح لكلمـــة"حيـــاة" بالنسبة للرقيق .

ها هى ذى السيدة "أوفيليا" تسأل الأَمة "توبســـى" عَـــن عُمرها.

فتجيبـــها"توبسى" .

ـ "لستُ أدرى ياسيدتى ..

ـ "ومن هى أمك ..؟؟

ـ "لست أدرى أيضاً.. لم تكن لى أم فى يوم من الأيام..!!

ـ "لم يكن لك أم..؟ عجباً، أين وُلدت يافتاتى..؟

ـ "لست أدرى ياسيدتى.. أنا لم أُولَدْ فى يوم من الأيام"!!

ومَلْمح آخر من ملامح الضياع القاسى الذى كتب علـــى أولئك المساكين، ترسمه الكاتبة على لسان"كاسى" .

● ـ "لسْنا نعرف سبيلا سوى القبر" .

"إن أحقر الحيوانات والطيور لَتجد لها مسكنًا ومـــأوى.. حتى الحيَّات والتماسيح لها جُحورها، وأوطانها التى تستقرُّ فيـــها

وتَهدأ ..

"أما نحن، فمالَنا من مأوى.!!

"وحتى حين نـــهرب منهم إلى المستنقعـــــات، تتعقبنـــا كِلابهم، لِتنهشنا وتُمزقنا ..

"كل شىء ضدّنا، حتى حيواناتـــهم عدوٌّ لَنا..!؟ فإلى أيـــن نذهب"..؟!

* * *

ولقد دوَّخ هذا الضياع عقولهم وضمائرهم وملأها يأساً وحقداً وفقدوا الأمل فى ثواب الآخرة وفى عدالة الدنيا .

ها هو ذا"توم" يُواسى إحدى الضحايا قائلا :

● ـ ألا تعلمين أن يسوع سيبسط إليك يَدَ عَوْنـــــه، وأن مَثواك الجنة، والراحة الأبدية ..؟؟

فتجيبه فى جَزع أليم :

● ـ لستُ أريد الذهاب إلى الجنة !! أليست هى المكـــان الذى سيذهب إليه ذووا البَشرة البيضاء..؟، إنى لأفضل الجحيـــم على الجنة ما دمت سأجد فى الجنة سيدى، وسيدتى".!! والآن، ماذا كان موقف الرقيق المعذّب من نكبتهم هذه..؟

إن بعضهم يقضم أسنانه من الغيظ ويبحث عـــن فُـــرص

الانتقام .

وبعضهم يغفر، ولكنه يحتفظ بحقه فى القصاص أمــــام أى عدوان جديد .

وبعضهم يلوذ بالضمير ، وبالحُب..

● ـ أما الفريق الأول فترسم المؤلفة صورته فى مَشهد للأمَة المعذبة التعسة"كاسى" حيث تتأهب لاغتيــال ســيدها الفــظ المتوحش، فتسقيه من الخمر حتى يفقد وعيه، وتخبئ فأسًا لتهشم بــها رأسه المثقل بالقسوة، وفى هجعة الليل تنــادى فى همــس خفيض:

ـ "توم..توم، ألا تُريد أن تنعم بحريتك ..؟

ـ "هيا الآن ياتُوم، إن باب غرفته لمشرَع.

"خذ الفأس واسحق بــها رأسه؛ فإن ذراعىَّ ضعيفتان..!

* * *

ـ أما الفريق الثانى، فيتبدَّى فى موقف"جورج" ذلك العبــد المطارَد الذى لايريد من الدنيا إلا أن تتركه وشأنه دون أن يَــرزأه ناسُها من جديد ..

● ـ "إنى لن أهاجم أحدا... لكنى كذلك لن أقف موقــف المتفرج وأنا أنظر زوجتى تُساقُ بين يدى النخَّــاس لتُبــاع فى

الأسواق ..

"إن الله أعطانى ذراعين قويتين للدفاع عنها وحمايتها"

"فليُساعدنى الله.. إنى سأقاتل حتى الرَّمَق الأخير قبـــل أن ينتزعوا منى زوجتى وولدى، فهل أنا فى ذلك مَلوم"..!!

لا ياجورج.. لستَ أبدا بمَلوُم ..!!

* * *

● ـ أما الفريق الثالث الذى يُؤثر الصبر ويُؤمن بأن قضيَّته العادلة ستجد فوزها فى المحبة. وانتظار رحمة الله، فمَثَّله فى القصة هو ـ "توم"

فعندما دعته "كاسى" ليسحق بالفأس رأس سيده"ليكـرى" وهو يغطُّ فى نومه رفض"توم" أن يصنع.. رفض فى وقت كـــان جسده فيه لا يزال مُتقيحا من أثر التعذيب الوحشـــى الـــذى أنـــزلَه به "ليكرى" هذا ..

وأجاب "كاسى" قائلا :

"لا.. لا ياكاسى، لن ألوث يدى بالدم، ولو أعطِيتُ الدنيـا بأكملها" !!!

وترد عليه"كاسى" قائلة:

ـ"ولكن فكِّر ياتوم فى هذه المخلوقات البشرية التى قد تُوفق

في تحريرها جميعا من وحشية هذا السيد ـ ليكرى ـ "..

ويُجيبـــها توم:

"لا..لا.. إن الخير لايجىء أبدًا من الشرّ!!، إذا اســـتطعت فاهربي من غير إراقة دم"..!!

* * *

وماذا كان موقف الصفوة والسَّادَة من هذه المأساة؟

إن المؤلفة تختار واحدا منهم في ضميره حيـــاة؛ فيفضـــح دخائل هؤلاء السادة ويُعلن رأيه في جريمة الرق.. إنه في القصَّـــة السيد "سانت كلار".

ـ "أتريدين ياأوفيليا أن تعرف حقيقة رأيي في الرق.؟

"إن المزارعين الذين يفيدون من هذا النظام، ورجال الدين، الذين يتملّقون هؤلاء المُزارعين ..

"والسياسيون الذين يتصنعون تجاهل الرق كجريمة، لكـــي تبقى لهم مناصبهم ..

"هؤلاء جميعاً، يملكون من الحذق ما يستطيعون به تحريـــف الحقيقة والأخلاق.. بيد أنـــهم في قرارة أنفسهم يعلمون كـــم هم كاذبون..!!

"إن نظام الاسترقاق رجس من عمل الشيطان، وإنه ليمثـــل

نموذجا بارعاً لما يستطيع الشيطان أن يصنعه فى مجال اختصاصه..!!!".

* * *

لابديل للحرية.. وليس فى نعيم الدنيا كله ما يصلح أن يكون ثمنًا لها، أو عوضًا عنها .

تلك هى الحقيقة التى حق على الناس ـ جميع الناس ـ أن يدركوها .

وإن"توم" ليجليها أروع جلاء فى حواره مع سيده الذى يمن عليه قائلا :

*ـ "سوف أجعل منك رجلا حرًا ياتوم ..!!

ـ "شكرا للرب ياسيدى .

ـ "ألا ترى ياتوم أنك عشت عندنا حياة أفضل من حياة الحرية ..؟؟

ـ "كلا ، أيها السيد، كلا ..

ـ "هل كنت ياتوم قادراً بحريتك أن تلبس ما كنا نكسوك، وتطعم ما كنا نطعمك.؟

ـ "هذا صحيح ياسيدى، ولكنى أوثر أن تكون لى ثياب حقيرة، وبيت حقير، وأنا أقول: هذه الأشياء لى... على أن أتمتع

بخير من ذلك كله مما يملكه، ويملكنى معه رجل آخـــر اسمـــه ـ سيدى ـ " ..!!!

* * *

وبعد، فهذه المأساة أيّان مرساها ..؟

كيف ستجد حلها ومصيرها..؟

لنمض مع المؤلفة :

ها هو ذا "توم" يعانى آلامه المبرحة التى أصابه بـــها تعذيب بالغ الوحشية، أنـــزله بجسده الطاهر الوهنـــان ســـوط ســيده "ليكرى".. هذا السيد الذى رفض "توم" أن يغتالـــه والفرصـــة مواتية.. هذا السيد الذى أجلُّ فضائله ـ النذالَة.. وأهون رذائلـــه الوحشية ..!!

هاهو ذا العمّ"توم" الوديع، الطيب، المؤمن، الإنسان، يُعـالج سكرات الموت فى هدوء وصبر .

وبينما يتهيأ جفْناه ليُسبلا إلى الأبد، إذا شاب مُهَنَّد، قـــد جاء يركُضُ بِجواده.. جاء من بلد بعيد يبحث عن"توم" الـــذى طالما حمله على صدره وليداً ، وطفلا ..

ويتهالك الفتى على الجثمان المحتضر المودّع، وهو يصرخ:

ـ "توم.: توم، لاتَمت ياتوم ..!!

"لقد جئتُ لأُحَرِّرَك، وأعود بك إلى كُوخِك القديم.

توم.. توم.. لاتَمُت.. سأشتريك ياتوم."!!

ويجيب"توم" بآخر كلماته فى مثل هَمْس القديسين:

● ـ "شكرًا لك.، لقد جئتَ متأخرا ياولدى..

"إن الربَّ قد اشترانى" ..!!!

* * *

أجَل، إن الله قد اشتراه، واشترى معه جميع الرقيق..

ولسوف يُبارك الله الضمير الإنسانى فى ضربته الماحقة الـتى سَينـزلها بالمجرمين حُماة الرق وتُجاره ..

وإذا لم يكن من الحرب بُدّ، فلتكن الحرب.

وينـزع من بين صفوف البشرية ذات يوم ـ وبعد ظـهور قصة "كوخ العم توم" ببضع سنوات ـ رجل كضِيـاء الفَجْـر، يَحكى بـهاء الصدق وصمُودَ الحق.. ويعقد بسم الله الصفقـة المباركة التى سيُحرر بـها جميع الأرقاء.

هذه الصفقة التى تنبأ بـها "توم" ورُوحه تفيض وتصعـد إلى بارئها قائلا: ـ "إن الربَّ قد اشترانى"..

وكان"إبراهام لنكولن". هو ذاك المحرر العظيم .

* * *

هكذا كان عصر العقل، عصرُ الإنسان، ففيه تحررت المعرفة من كل معوقاتها، ونَمت نموًا سريعًا وهائلا، وبدأت تغـــزو فى توفيق عظيم كل المجهول.

ليس ذلك فحسب.. بل وإن ذلك تمّ ويَتمُّ لحساب التقـدم الإنسانى والمصير الإنسانى .

فقُوى الذهن وطاقات الفكر جميعها مُسخَّرات لكشـــف مصادر مستمرة للثراء الإنسانى بكل صُنوفه المادية، والعلميــة؟ والرُّوحية..

والضمير يقظ لكل التَّناقضات التى تصاحب زحف التقـدم الحثيث .

وهو فى موازنة مستمرة بين قوى الجذْب والدَّفع فى هـــذا التقدم المُطَّرد.

فمع ثورات التحرير فى بداياتــها، رَكَّزَ الضمير على حـق الفرد تركيزًا أمينًا، ووضَع كل النظم والقوانين فى خدمة الحريـة الفردية.. ذلك أن البشرية كانت ترزخ تحت ســيطرة طغيـان متعدد الأزياء دغدغ كثيرًا من صلابتــها، وأذاب كثـيرًا مـن شخصيتها، فلم يكن للحرية معنى حين جاءت، لو أنــها تخطَّت الوحدة الأولى فى البناء البشرى، مُتَمثِّلَة فى الفرد .

ولكن حين يتقدم العهد، ويتحول مبدأ الحرية الفردية فى أيدى أساتذة الدهاء والمغامرة إلى امتياز خاص تَنْعم به قلّة من المحتكرين والحاكمين، يُلقى الضمير بثقله فى الجانب الآخر، فيسارع الفكر إلى تلبية ندائه، ويعيد التوازن إلى القيم المضطربة.

ليست الحرية، أن تُتْخَمَ قِلَّة بجوع الكثرة ..

ولست أن تمتلئ السماء بدخان المصانع مُكَفّنة به أنفاس الكادحين، وعافيتهم، وأرواحهم.. !!

وليست أن تعود تجارة الرقيق فى أزياء تنكُّرية، ويسيطر سادة المال وأرباب المصانع والأرض على حركة الحياة.

ليست الحرية شيئاً من ذلك.. وإذا انزلقت قوى الشر بها نحو هذه المهاوى، فلابد إذن من نذير جديد .

ويجىء النذير.. موكب من دعاة الاشتراكية تنتهى أمانيُّه وأحلامه عند"ماركس" الذى يحوِّل الأمانى إلى حقوق، والأحلام إلى فلسفة ونظام .

لقد اكتشف ـ ماركس ـ المنطق التاريخى، الذى يجعل الاشتراكية ميقاتاً ومَوْعدًا فى مسارِ البشر ورحْلَة الحياة.. وصاغ فلسفته المقاتلة التى حققت غرضها التاريخى، فقدمت بالكادحين إلى مكانهم الحق فى الصفوف الأمامية، وهزت الأوضاع

الاقتصادية فى العالم كله هزّات هائلة أسقطت عنها الكثير مــن خَبَثِها وأنانيتها، ووضعت الاشتراكية كفلسفة،ونظام،وحركة ــ فى مكانـــها من الحياة الإنسانية .

بيد أنـــها خِلالَ صياغتها كفلسفة، وخلال إنجازها كنظام وتطبيق تكشفت حاجتها المُلِحّة إلى إعادة النظر فى موقفها مـــن الروح الإنسانى الذى تَجـــاهلت احتياجاتـــه، أو لم تتجاهلـــها ولكنها أدْخَلتها كوحدة حسابية فى عمليات الإنتاج، والتوزيـــع، وفائض القيمة ..!!

وهكذا صارت الماركسية التى جاءت ـ يـــوم جـــاءت ـ كنذير للذين اتخذوا من حقوق الإنسان صفقة يقامرون بـــها فى سبيل جشعهم الوبيل.. نقـــول صـــارت "الماركســـية" تبـدو وكأنـــها بحاجة إلى نذير يُصَحِّحُ موقفها من حريـــــة الفكـــر، والقول، والضمير ...!!

والضمير الإنسانى كشأنه دائمًا لايدَعُ الســـيئات تلتـــهم الحسنات، والأخطاء تأكل المزايا.. ومن ثَمَّ فقد أرسل ألســـنته المفكرة فى كل مكان تعيد إلى حرية الضمير والتفكـــير والإرادة قداستَها، وتشير إلى الآفاق الجديدة التى ستعثر فيـــــها المســـألة الإنسانية كلها على تكامُلِها. فلا يتحقـــق العـــدل فى غيـــاب

الحرية.. ولاتتحقق الحرية فى غياب العدل.. بل تتشكّل منــــهما معاً، وعلى أوسع الآمال وأحفَلِها بالتوفيق.. جميع الحياة الناجحة لبنى الإنسان .

ويُواصِلُ الضمير دعم حقوق الإنسان، فيُتـــابع خَــوْض المعارك مع الطاغوت الذى تَئِن تحت قدميه إرادة الحياة.. ذلكــم هو الاستعمار.

إنه الابن الشرعى لقوى الاحتكار والاستغلال؛ ومن ثَـــمّ فهو يحميها ويبذل جهوده المستميتة ليطيل بقاءها.

وهو الذى فى سبيل بحثه عن الأسواق وامتلاكــــه منــابع الثروات يَشنُّ الحروب الظالمـــة والفاتكـــة ويحتجـــز حريـــات الشعوب.

وهو إذْ يستمد وجوده من كل ضلالات الحياة وفســادها، فإنه يعمل دائمًا ودائبًا ضد قِيَمِها الخيِّرة فينصر الخديعـــة علـــى الوضوح.. وينصر الكذب على الصدق.. ولايرى فى الحريـــة إلا صفقة يُساوِم بـــها وعَليها.. يؤمن ببعضها ويكفُر بأكثرهــــا . يُبيحُها هنا، ويُحرِّمُها هناك ..

ومن ثَم لم يجد الضمير الإنسانى بُدًّا مـــن أن يجنِّــد كـــل طاقات البشر ليلْقى بـــها فى معركة فاصلة ضِدَّ هـــذا الخَصْـــم

المُبين.

وهكذا واصَلَتْ ثورات الحرية انطلاقاتها منتصرة ظـــافرة. حتى لم يعد فى طريقها إلاَّ أهْوَنه وأقلّه .

* * *

ويُشارف عصر العقل قمّة مُهمته ومسعاه بإرسال سُــفرائه إلى الفضاء والمجهول .

إن كل التهويمات التى حاول الفكر من قديم أن يتعــــرف بــها إلى الكون ويُنجز بــها توصيات الضمير الإنسانى بإنشــاء علاقات وطيدة وصداقات نافعة مع الكون.. بكواكبه ونجومه..

تلك التهويمات التى جاءت مع الحدس القـــديم .. وتلــك الإيماءات الذكية المُباشرة التى جاءت مع الدين . هـــذه وتلــك تحوَّلت فى عصر العقل على يد "أينشتاين" ورفاقه إلى نظريــــات وقوانين ثم إلى صواريخ تحمل إلى الفضاء بكل أسراره، لاحـــدْس الإنسان وظنونه ... بل علمه، وذكاءه، وقدراته، ويقينه..!

إن هذه الصواريخ عابرة الفضاء والكواكب، لَتتركُ فى كـل مكان تجتازه أوراق اعتماد كسفير دائم لـــ "أمَّة الأرض" وإرادة الإنسان..!!

* * *

تُرى، هل يظل الذكاء الإنسانى بعد وثبته العاتية والمعجزة هذه ـ على وَلائه للضمير..؟ أم هو فى مُروقه المذهل من الأرض إلى الكواكب، يمرق أيضًا من المسئوليات التى لايفتأ يُذكره الضمير بها ويدعوه إليها ..؟

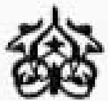
فى هذا المأزق وحده تتمثل اليوم مشكلة الإنسان .

ولقد كان الضمير صادق الحس بهذه المشكلة، فراح يلقاها فى أول الطريق، وينشئ لها عصرًا جديدًا يحمل نداءه ويَحمى رَجاءه.



الفصل الرابع





فى عَصر غاندى .. وَالذرّة ..









سار العلم يقطع الطريق وثبا ..

وجاء "جاليليو"، و"نيوتن"، و"دارون"، و"فرويد"، و"هرشل"، و"بريستلى"، و"دايفى"، و"فاراداى"، و"مكسويل"، و"ماركونى".

وجاء "دلتن"، و"مندليف"، و"كورى"، و"طمسن" و"موزلى".

وجاءوا جميعا وعشرات مثلهم، ونهضوا جميعا فوق أكتاف الذين سبقوهم فى الحضارات القديمة، ثم فى بلاد الإغريق العظيمة، ثم فى الحضارة الإسلامية المزدهرة..

وساروا على الدرب الطويل، يحملون المشاعل نفسها.. ولكن بقلوب أجرأ، وخبرات أعظم، وذكاء أكثر مضاء، وعزيمة أشد تصميما وإصرارا.

وحديث "الذَّرّة" الذى بـــدأ مـــع الفيلســـوف اليونـــانى "لِيوسِبِّس"، ثم نما واتَّسع مع"ديمقريطس"و"أبيقـــور"، ثم نظمـــه "لوكريتْيَس" الرومانى فى ستة دواوين من الشعر!! ثم أخذ طَابعـاً عِلْمياً وجديدًا على يد"دَالْتن" فى أوائل القرن التاســـع عشـــر، ورفاقه الذين وفدوا بعده .

هذا الحديث عن الذّرة، ظلّ يتنقّل فى أصلاب العقول حـتى وفَد على الحياة ذات يوم رجل عجيب اسمه "أينشتاين" فقـــال الكلمة الأخيرة التى أطلقت العُنفوان الذّرّىّ من مَكْمنه.

فى أى عام وُلد "أينشتاين"..؟؟

وهل يعنينا تاريخ موْلده كثيراً..؟؟

أجل.. إذن فلنعرف أنه ولد عامـ ١٨٧٩ـ

وُلِد الرجل الذى سيكشف أعظم حقائق العلـــم اليـــوم . وربُّما فى كل يوم ..!

وُلِد الذى ستبوح له "الذّرّة" بكلمة السِّر، فيفُـــض آخـــر مَغالِيقها.. ويخط بضعة رموز على ورقة بيضاء، فتتحوَّل هـــذه الرموز إلى طاقة تناهت فى رَهبتها وخطرها..! ولكن .انظروا..

فقبل أن يُولَد هذا الرجل بعشرة أعوام تماما، أى فى عـــام ـ ١٨٦٩ـ ولد رجل من طراز آخر اسمه"غاندى"..

أَيَّةُ حكمة إلهية عُظمى .؟!

وأى اتفاق سعيد هذا ..؟!

قبل أن يجىء الرجل الذى سيطلق المارد الرهيب.. جاء الرجل الذى سيضع البلْسَم العجيب ..!!!!

قبل أن يجىء الرجل الذى أطلق طاقَة "الذّرّة" .. جاء الرجل الذى أطلق طاقة "المحبَّة" ..

إنكم يا أهلَ عَصْر الذرّة أمام معجزة أعظم من الذّرّة نفسها..!

أجَل.. فقد تحوَّلت المحبَّة إلى طاقة وأنتم لاتشعرون..!

والذين هتفوا بالمحبة وبالسلام وعاشوهُما منذ آلاف السنين إلى يومنا.. بُعث ولاؤهم النبيل للحُبِّ فى مهرجان النصر المجيد الذى هَيَّأه هذا الابن المبارَك العظيم للحياة ولضميرها ــ قِدِّيسُ عصرنا.. وقدِّيسُ العصور قاطِبة ـ غاندى ...!!

إن عالَمنا كان ينتظره ..

وإن الضمير الإنسانى كان يبحث عن هذا الذى يستطيع أن يبنى من كل هُتافات المحبة صرْحا مُوحَّدا، ويحولها إلى طاقة تأتى من المعجزات بما يُقنع عصرًا عسير الإيمان.. ولقد وجد طِلبته فى غاندى ..

إن"غاندى" ، هو ضمير عصرنا.. وهو الممثل الحق للضمير الإنسانى فى أجيالنا وعالمنا الحديث كله ..!

وحين نضع "الذرة" فى الجهة المقابلة لـ"غاندى" لانعنى بهذا أننا نضع الشر مقابل الخير.. فإطلاق الطاقة الذرية خير عظيم رغم البداية البشعة التى استهل بها العلم عصر الذرة.

بيد أن العلم بسيطرته على الطاقة النووية، وغزوه الفضاء، قد هيأ لناس عصرنا المزيد من الغرور، والمزيد من الافتتان بالمادة، والمزيد من التجهم للإيمان، والمزيد من المباراة فى التسلح وصناعة الدمار والعدم .

أى أن كل محاولات الفتك بالحياة، عبر التاريخ الإنسانى كله، قد بلغ مدها الطاغى قمته عندما أصبحت الذرة سلاحا فى يد الإنسان .

فماذا كان جواب الضمير الإنسانى ..؟

كان أن اصطنع غاندى ليتحدى به الضعف الإنسانى فى كل ألوانه، ليركز فيه خلاصة تجاربه ومنتهى فضائله وسموه، ولتتمثل فيه عند الذروة أعرق وأعمق الحاجات الإنسانية من إيمان ، ومحبة، وكرامة، ووعى، وسلام.

وجاء غاندى ..

وكان أمره عجبا ..

جاء الرجل الذى سيعلم كل الناس، والذى تعلم من كل الناس ـ تعلم من"المسيح" و"محمد".. ومن"سقراط" و"بوذا"..

وقرأ لـ"إمرسون" ،و"ثورو"،و"كارليل" ،و"رسكن"، و"تولستوى" حيث تأثر به كثيرا وحاكاه كثيرا .

وإننا إذ نتحدث عنه. لانؤرخ له، وإنما نتتبع رحلة الضمير الإنسانى من خلال الحياة المجيدة لهذا القديس .

لقد بلغ الضمير الإنسانى قمة رشده، وهو يتحرك فوق مسرح الأحداث الكبرى لعصرنا متقمصا شخصية ابنه البار المهاتما غاندى ..

ولم يكن صدفة ولا اعتباطا أن تعطى البشرية فى وقت واحد ـ غاندى، والذرة ـ بل هو تدبير محكم لقدر عليم.

إن"الذرة" تعنى أن عصرنا قد وضع فى يده من أسرار الكون ومفاتح المجهول ما لم تعطه البشرية السالفة كلها.. فإذا وضعت هذه الأسرار فى خدمة الظفر والناب، فسوف تتحول الأرض ومن عليها إلى ذكرى كئيبة.

وإذا وضعت فى خدمة الضمير والعقل فستبلغ البشرية من ذر ى الكمال مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على

قلب بشر..

فكيف ـ إذن ـ نؤثر الثانية على الأولى..؟

كيف نضع أسرار الذرة وطاقتها النامية المعطية فى خدمة السلام والخير ..؟

إن الضمير الإنسانى يجيبنا بكلمتين اثنتين..."تجربة غاندى".

فتجربة غاندى لم تكن من أجل الهند وحدها.. وغاندى لم يكن رجل الهند وحدها.. ومهما يكن مصير الهند دولة وشعبا بعد رحيل غاندى عنها، فإن تجربة المهاتما ستظل نبراسا للبشرية كلها.. ستظل أرفع من أن تعطى دلالات قومية ضيقة؛ وستظل مفاهيمها وأنوارها عميقة شاملة ..

ذلك لأنها ليست من صنعه، ولا من وحى بيئته وعصره.. بل هى تجربة الأنبياء والمرسلين، والرواد والمصلحين.. تجربة الإنسانية كلها.. تجربة ضميرها القوى الشجاع منذ الأيام الأولى للبشر.. منذ الأزمان البعيدة الممعنة فى البعد .

ولكن، لأن المادة وحدها، صارت مصدر تفكير هذا العصر الذى نعيشه، فإن تجربة الروح التى مارسها غاندى بنجاح عظيم، بزغت كما لو كانت نسيجا وحدها .

ولقد كان قدرا علويا، أن يجىء هذا الرجل بتجربته فى

عصر يريد ألا يؤمن إلا بالمحسوس إلها للكون.. وبالقنبلة حلا للنزاع.. وبالاستغلال سبيلا للتملك، وبالدمار طريقا إلى الحياة. وبالكبرياء آية للقوة وبالبغى سبيلا للسيادة..!!

جاء هو، ليؤمن بالله الذى لا تدركه الأبصار.، وليؤمن بالحق الذى يجب أن يكون فوق القوة.. وليناد ى بـ"الساتيا جراها" أى "نبذ العنف" ويحل بها أعتى المشكلات والأزمات.. ولينبذ التملك، ويسير عريانا وحافيا ليشارك الملايين من شعبه شقاءها وضناها.. وليحمل مغزله ويصطحب عنزته، فى الوقت الذى يقود فيه أكثر من ثلاثمائة مليون هندى فى معركة من أنظف وأعظم معارك الحرية والاستقلال، وفى الوقت الذى يعامله سكان الكرة الأرضية كأستاذ، وينظرون إليه فى تقديس كمعجزة ..!!!

جاء ليحترم الحياة ويقدسها، ليس فى الإنسان وحده.. بل فى الكائنات الحية جميعا .

ألا فلنصغ للضمير الإنسانى يتحدث من خلاله .

- ـ"لقد وجدت الحياة تنحدر فى هاوية الدمار بسبب العنف ..

"وقلت لنفسى: لابد أن هناك بديلا للعنف ينقذ الحياة

ويسمو بـــها على الدمار.

"وهذا البديل قانون صادق يجعل الجماعة الإنسانية منسقة، ويكرم مثوى الحياة .

"وإذا ما اهتدينا إلى هذا القانون، فواجبنا أن نعمل به مـــن فورنا.

"ولقد عرفت"القانون" وجربته فنجح أعظـــم نجـــاح...

"ذلكم هو المحبة..

"فحيثما توجد الحروب، وحيثما يجابهنا الخصـــم؛ فالمحبـــة طريق الظفر..

"ولقد ظهرت آثار هذا القانون فى الهند على أوسع مدى..

"ولست أزعم أن مبدأ"اللاعنف" قد نفذ إلى أفئدة الثلاثمائة مليون والستين مليونا من الهنود ..

"غير أنى أؤكد أنه سيطر على النفوس أكثر من أية عقيـــدة أخرى، وفى سرعة تذهل الحاسبين..

"لقد علمتنا التجربة أن كل مشكلة تجد حلها الصحيـــح حين نصمم على أن نجعل قانون الحق ونبـــذ العنـــف دســـتورا للحياة...!!"

* * *

هكذا تحدث غاندى ..

إن كل مشكلة تستجيب للحل الصحيح، مـــادام الرفـــق والحب والحق دستورا للحياة .

ولكن حين لا يأتى هذا الدستور بنتيجة.. حين تأبى قـوى الشر أن تذعن للحق وتستحيى من الحب.. ألا يكون الســـلاح يومئذ هو العلاج المناسب ..؟؟

إن غاندى يبتسم لمثل هذا التساؤل وهذا المنطق ابتســـامة راث ومشفق..

فحمل السلاح عنده ليس حلا على الإطلاق، والســـلاح كوسيلة لحل المشكلات ليس أمرا مهلكا فحسب، بل هو فاشـل أيضا ومخفق كل الإخفاق .

ها هو ذا يقول :

- ـ"لقد أعلن الرئيس ولسن شروطه الأربعة عشر الطيبـة، ولكنه ختمها بقوله: إذا فشلت محاولاتنا لإحراز السلام فلنعتمـد على أسلحتنا ..

"أما أنا فأقول عكس هذا تماما.. أقول: إن الأسلحة قـــد فشلت وخسرت وخابت ، فتعالوا نبحث عن وسيلة أخـــرى.. تعالوا نجرب قوة الحب، وقوة الحق.. فإذا ظفرنا بنتيجة ، فـآنئذ

نكون قد وجدنا الطريق" ..!!

ولقد ذهب يجرب قوة الحب وقوة الحق ..

لم يجربـها ليحدد على ضوء نتائج التجربة مدى ولائـه للحب وللحق، فولاؤه لهما وإيمانه بـهما أرسخ وأعظم مـن أن يكونا موضع تجربة وامتحان .

إنما يجرى التجربة لحساب البشر.. ليرى من له عينـان، ويسمع من له أذنان، ويفقه من له قلب، كيف يعالج الخير الشر، وتقهر المحبة الكراهية..

فالسلاح عند غاندى وسيلة بائدة ومهلكة.

ولقد قال"فرنكلين د.روزفلت" يوما وهو رئيس للولايـات المتحدة: ـ"إن الالتجاء إلى القوة فى الحرب العظمى الأولى قصـر عن جلب السلام، فالنصر والهزيمة كانا عقيمين، وكـان مـن واجب العالم أن يتفهم هذا الدرس"..!!

وكل زعماء العالم الحديث قالوا ما قاله"روزفلت"، ولقـد بحت أصواقم جميعا هاتفة بضرورة نـزع السلاح؛. بينما هـم يتبارون جميعا فى جنون التسلح وصناعة الانتحار..!!

أما غاندى فتلك عظمته ..

قال: لاخيرـ اليوم ـ فى العنف وإنما الخير فى نبذه، ثم وضـع

هذه الحقيقة موضع التطبيق الأمين والرفيق، وشهدت الحياة وهى سعيدة مغتبطة ابنها البار هذا، أشيب الرأس، ضامر البدن ..

إذا جلس، ففوق تراب الأرض، وإذا نام فعلى أرض الغرفة العارية، ولا يملك من دنياه سوى ثلاثة أثواب خشنة، ثوبان لملبسه، ويتخذ من الثالث فراشا.. ويعيش على البندق والبرتقال والتمر ولبن الماعز، وكما يقدس صلاته وصيامه، يقدس بنفس القدر جلوسه إلى مغزله أربع ساعات كل يوم..!!

شهدته الحياة فى غبطة، وهو يخوض مع شعبه الأعزل أعجب معارك الحرية ضد امبراطورية كبرى، انتهت إليها يومذاك سيادة الأرض والبحر والجو.

خاض المعركة بسلاحه هو.. "الساتيا جراها" ـ"نبذ العنف".

ولم يكن يزعجه الرصاص المنهمر فوق أبناء شعبه من القوات المستعمرة الغاصبة، بقدر ما كان يزعجه أن يرى هنديا يرمى عدوه وقاتله بحصاة ..!!

ذلك أن الآخرين يتصرفون وفق شرائع الغاب التى يحملون رواسبها .

أما أبناء غاندى وحملة مبادئه، فيجب أن يتصرفوا وفق

مبادئهم هم ـ هذه المبادئ التى اكتشفت قانون الحب والحق ونذرت حياتها له .

الآخرون، ينتمون إلى عصور الكراهية والعنف.. أما غاندى ومريدوه فبذور بشرية جديدة، وبشائر عصور الحب والتسامح والرشد..

* * *

حين صدرت قوانين"رولند" التى صادرت حرية القول والنشر. إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى.. ثم حين أعقبتها مذبحة"أمر تسار" الرهيبة، أصيب غاندى بخيبة أمل مريرة، فهو الذى أحسن إلى بريطانيا فى الحرب، وبذل لإنجاح قضيتها كل عون رآه مشروعا وعادلا.. والآن وقد غادرت ساحة القتال منتصرة، فإنها تجازيه أسوأ جزاء ..

عندئذ، وأمام هذا الموقف الذى يحتم القيام بمناهضة ومقاومة، أخرج غاندى من حقيبته أقصى وأقسى إجراء تسمح له مبادئه باتخاذه، وكان"العصيان المدنى" الذى يتمثل فى عدم التعاون مع المستعمرين.. شريطة ألا يقوم هذا العصيان السلمى بأية بادرة من بوادر العنف وحمل السلاح.. لكن تجربة غاندى المتمثلة فى الحب ونبذ العنف.. لم تكن قد عاشت بين شعبه

يومذاك إلا قليلا، فلم يكد الشعب يبدأ حملة "العصيان" حتى استجاشته الأحداث، فتحول العصيان السلمى إلى عصيان مسلح.

وعندئذ لم تشهد حياة غاندى أياما ملآى بالمرارة والحزن كتلك الأيام التى رأى فيها مبادئه تتعرض لهذه المحنة من أمته وشعبه، فأصدر نداءه الحثيث بإرجاء حملة العصيان المدنى، وثار كثيرون من الشعب ضده ووقع ضحية لعدوان فريق من الغوغاء أكثر من مرة ــ وكان هذا أقسى كثيرا على نفسه من أى عدوان يصيبه من الإنجليز أنفسهم.. ومع هذا فما ازداد إلا إيمانا بمبدأ "نبذ العنف" وأطلق يومذاك حكمته الوثقى:

- "إننى أوثر الانتظار أجيالا وأحقابا، على أن ألتمس حرية بلادى بالعنف والدم" .

مبدأ عجيب حقا.. ليس فينا من يطيقه، ولكن غاندى لم يأت ليسير فى الدروب المطروقة.. بل جاء ليرتاد من مجاهل التفوق الإنسانى ما يحتم عليه الضمير ارتياده..

جاء ليعلم البشر أن المحبة تستطيع أن تغلب وتفوز، لابالنسبة له وحده.. بل ولجميع الناس أيضا .

من أجل ذلك، وحين قيل له:"إنك إنسان غير عادى..

ولاينبغى أن تتوقع من العالم أن يعمل مثلما تعمـــل"ـــ أجـــاب قائلا:

- ـ"إننى إنسان ضعيف وفان مثل بقيـــــة النـــاس.. وإنى لأملك شيئا خارقا ..

"وسأنبئكم بكل ما أملكه..

"إنى أملك من التواضع ما يكفى للإقرار بخطئى والرجـــوع عنه..

وأملك ثقة مطلقة بالله وبجوده..

وأملك ولاء للحق وللحب لاينضب معينه..

"والآن دعونى أسألكم :أليس كل إنسان قـــادرا علـــى أن يمتلك هذه الأشياء..؟؟

"إننا نكتشف كل يوم جديدا فى عالم الطبيعـــــة، والحيـــاة فلماذا نستسلم لليأس والعجز، ولا نكتشـــف الجديـــد فى روح الإنسان وإرادته ..؟؟

"وهبوا الاستجابة لقانون الحق والحب نادرة.. فهل ثمـــت استحالة فى مضاعفة هذه الندرة حتى تصبح قاعدة" ..؟؟!!

* * *

ما أعذب المنطق ، وما أصدقه.

منطق رجل واع لجوهر الحق، وجوهر الحـــب، ومـــدرك للمرحلة الجديدة التى لابد للبشرية أن تنتقل إليها حين يصير الحق والحب دستورها.

وهو إذ يخوض معركته مع الاستعمار البريطانى فى بلده على أساس دستوره هذا.. فإنه لايعمل لكى تظفر الهند باســـتقلالها فحسب، بل ولكى تنجح التجربة بنجاحها الذى يجعل منها طريقا عاما، للأجيال والشعوب..

هاهو ذا يتحدث:

- ـ"إن اهتمامى بحرية الهند سيزول لو رأيتـــها تصطنـــع لبلوغ حريتها وسائل العنف؛ لأن الثمرة التى تجنيها مـــن تلـــك الوسائل لن تكون الحرية، بل الاستعباد "

* * *

ويقول:

ـ"إنى لاأكافح من أجل غاية أدنى من سلام العالم كله..

"فإذا انتصرت فى الهند حركة"نبذ العنف" فإنهـــا ســـوف تعطى معنى جديدا للبطولة، وللحياة ذاتها، واسمحوا لى أن أقـــول هذا بكل تواضع"..

هذا مايريده الضمير الإنسانى إذن من غاندى.

أن ينـــزع عن البطولة مفاهيمها الزائفة المتمثلة فى الغلـــب بقوة السلاح والبغى والشر.

وأن يرد إليها معناها الحق.. فالبطولة هى الســـمو علـــى الحقد، والتفوق على العنف والشر والباطل، بالمحبة والخير والحق.

* * *

ولما كانت الوطنية النابحة بالتعصب الذميم لنفسها، عمـــل يحمل طابع المقاومة للحق والحب، والمقاومة لكـــل محـــاولات التآخى المحترم بين جميع البشر، فإن الضمير فى تجربـــة غـــاندى يرسم من أقوال الرجل ومن سلوكه مايزجر هذا النـــوع مـــن الوطنية الضيقة المغلقة.

● ـ"إننى أدعو نفسى وطنيا، لكن وطنيتى واسعة كـــالكون الرحيب.. إنـــها تضم فى فؤادها سائر أمـــم الأرض، وتعمـــل وطنيتى من أجل كرامة العالم كله ورفاهيته .

"إننى إذا كنت أنشد فى الهند أمة قوية، فليس لكى تســـتغل أو تتشامخ، بل لتكون للدول الأخرى قدوة ومثلا"

* * *

ولما كان دين الأمة وثقافتها أهم الخصائص الـــتى تحـــدد شخصيتها، فقد أراد غاندى ألا تجيئ انعكاسات الدين والثقافـــة

على أمته مناهضة لتبعاتها الجديدة تجاه الإخاء العالمى والمحبة الشاملة، من أجل هذا قال :

ـ"إن الديانة الهندية ليست ديانة مغلقة ، بل إنما لتتسع لعبادات جميع الأنبياء ..

"وهى تنصح كل إنسان أن يعبد الله وفق دينه وعقيدته"

وقال عن الثقافة :

ـ"إن الثقافة الهندية ليست هندوسية ولا إسلامية، ولاغير هذين.. إنما هى مزيج من الثقافات جميعا"

* * *

- ـ"أريد أن تهب رياح الثقافات من جميع البلدان وتصدح حول بيتى فى حرية.. ولكنى أرفض أن تقتلعنى من مكانى ثقافة منها؛ ذلك لأنى أرفض أن أعيش تابعا أو عبدا" ..

* * *

إن الوحدة البشرية تستكمل خصائصها فى وعى ذلك القديس والزعيم .

وهذه الوحدة وإن كانت تصنع مصيرها بيديها وإرادتها إلا أنها لاتبلغ من الغرور ما يجعلها تكفر بوجود إله عادل وعظيم.

- "إنى مثل أى هندى آخر، أومن بالله، وبالتوحيد".

والأديان ـ هذه القوى الهادية الصامدة التى أعطت الإنسانية من الرشد والسمو ما أعطت، لاتحركها فى تجربة غـــاندى إرادة التنافس ـ بل إرادة التكامل .

- "إننى أومن أن التوارة ، والإنجيل، والقرآن والزندافستا ـ أى كتاب زرادشت ـ كلها ملهمة كالفيدات تماما "..

* * *

ولقد عاش غاندى القديس والعابد وفق هذا المبدأ.

وحين إغتالته رصاصات آثمة، كان لسانه لا يـــزال رطبـــا بصلاته التى كان يتلو بين تراتيلها ـ﴿قـــل هـــو الله أحـــد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحدا﴾ ..

أجل.. كان يضمن صلواته دوما آيات من التوراة. ومـــن الإنجيل، ومن القرآن، ومن كتب الديانة الهندية (الفيدات) ..

ألا وإن غاندى الذى تلقى من عصر النبوة احترام الديـــن، قد تلقى من عصر العقل احترام الاقتناع، فكان يناقش الأديان فى غير تطرف أو سفسطة، ولم يكن الإيمان بالله ، ولم تكن عبادتـــه يعنيان عنده الحياة فى صومعـــة، أو حـــتى نشـــدان الخـــلاص الشخصى.. بل كانا يعنيان تحرر الـــروح الإنســـانى والمصـــير

الإنسانى من كل معوقاتهما، وبعث الفرد المتفوق على أهوائـــه والعامل فى خدمة الجنس البشرى على أساس من الحق والحب..

* * *

إن بـــهاء التجربة الإنســـانية فى "غـــاندى" وعظمتـــها، يتمثلان فى أنه لم يكن مجرد قديس، ولا مجرد زعيم روحى. بــل كان زعيما سياسيا يتعامل مـــع دول، وحكومـــات، ووزارات خارجية تعج بالحيل الشيطانية، وكان وضعه هذا يدعوه كمـــا يدعو سواه إلى اصطناع الوسائل الدبلوماسية التى كثيرا ما تعتمد على الكذب والمخاتلة، ومع هذا فقد نجح نجاحا عظيمـــا فى أن يستمسك بوسائله هو. وبلغ بـــها وحدها كل ما أراده لأمتـــه من وحدة واستقلال، وكل ما أراده للبشر من قدوة . لكأنما أراد الضمير الإنسانى أن يقول لعصرنا من خلال تجربة غاندى هـــذه: إن هذا الطراز من الزعامة السياسية هو الذى يجب أن يكـــون.. هو الذى جاء دوره وأهلت أيامه ..!!

إنـــها الزعامة التى لاتربط نضالهـــا بالغايـــات العظيمـــة فحسب، بل وبالوسائل العظيمة والنظيفة، أولا، وقبلا..

إن ـ راجندرا برازاد ـ رئيس جمهورية الهند السابق يـــروى لنا هذه الواقعة فى كتابه:"عند قدمى غاندى"

● ـ"ذات يوم قدم إلينا أحد موظفى الحكومة بصفة سوية نسخة من تقرير كان قد قدم إلى المسئولين البريطانيين فى الهند، فحملنا التقرير إلى ـ غاندى ـ بيد انه عرف قبل أن يقرأه الطريقة التى حصلنا بها عليه.. فما كان منه إلا أن أبى الإطلاع عليه ورغب فى إعادته إلى الموظف الحكومى.. تلك كانت الطريقة التى عملنا بها الصدق فى العمل"..!!

* * *

إن غاندى يعلم البشرية باسم الضمير الإنسانى أن الوسائل أهم من الغايات.. فنحن نعيش مع الوسائل أكثر أكثر مما نعيش مع الغايات.. إن الغايات قد تتحق آخر العمر.. وقد نرحل عن الدنيا فور تحققها.. أما الوسائل فنحن نقضى عمرنا كله أو أكثره معها، ومن ثم فهى التى تصلنا، وتصوغنا، وتنهى فينا إرادة الخير إذا كانت قويمة، أو إرادة الشر إذ كانت رديئة.

أجل.. إن حياتنا فى مجموعها ليست إلا تلك الوسائل التى نتوسل بها لتحقيق أهدافنا .

وهذا هو الذى منح حياة غاندى، وبالتالى منح تجربته تكاملا فذا وباهرا .

لقد كان غاندى رياضته الروحية الخاصة التى لايكلف

بـــها إلا من يطيقها ويختارها، والتى لا ينبغى أن تتخذ مـــبررا لوصف تجربته بالمثالية المفرطة.

فأسلوب غاندى فى التقشف، وفى الصيام، والصمـــت، وفى قصر طعامه على أنواع محددة كالبندق والتمـــر ولـــبن المـــاعز وامتناعه عن أكل اللحوم احتراما لحق الحيوان فى الحياة..

كل هذه ليست من التبعات الأساسية التى تتطلبـــها "تجربة غاندى" لخلق عالم يقوم على الحق والحب .

إن جوهر هذه التجربة تتمثل فى قدرتـــها على ملء الفراغ الوهمى القائم فى الحياة الإنسانية، كيما تجد تكاملها .

* * *

ومن ثم فإن بطل عصرنا وأستاذه قد وضع أقدام البشـــرية والحياة فوق الطريق المستقيم .

إنه لم يؤمن بفراغ بين السماء والأرض، فآمن بالله الـــذى يملأ الكون بأسره ..

لم يؤمن بفراغ بين الأديان؛ فعبد الله بـــها جميعا ..

لم يؤمن بفراغ بين الناس فقاوم آفة الطبقية، وعاش بـــين المنبوذين ..

لم يؤمن بفراغ بين شعوب الأرض، فنذر حياته لســـلامها

جميعا، وحريتها جميعا ..

لم يؤمن بفراغ بين الوسائل والغايات، فمارسها جميعا على نمط واحد من الاستقامة ورفعة الضمير ..

لم يؤمن بفراغ بين الزعامة والأمة، فتخلى عـــن أرباحـــه الحلال الهائلة، وشارك الملايين تقشفها ومعاناتـــها، ورفض دوما أن يفرض آراءه، أو ينفرد من دون الناس بقرار..

لم يؤمن بفراغ بين القانون والحكومـــة فقـــدس العـــدل والحرية..

لم يؤمن بفراغ بين الروح والجســـد فمزجـــهما معـــا فى شخصه المهيب وصاغ منهما أعذب تسبيحة فى عـــالم الطـــهر الإنسانى والكمال البشرى ..

* * *

تلك هى تجربة الضمير الإنسانى التى تنتظم كل محاولاتـــه الـــخيرة..

لقد كانت الهند "بيت" غاندى ..

وكان العالم "وطنه" ..

فماذا كانت رسالته نحو الهند وماذا كانت رســـالته نحـــو العالم ..؟

أما رسالته نحو الهند ، فكانت أن يوحدها، ويحررهـــــا.. ولقد أتم ذلك بنجاح .!!

وأما رسالته نحو العالم، فأن يعطيه المثل الصحيح فى قـــدرة الحق والحب على حفظ الحياة وتحقيق السعادة ..!!

لا ينبغى أن يقال هنا: لكن غاندى بشير الحق والحب قـــد ذهب صريع الكراهية والغدر.. فالطريقة التى انتهت بـــها حيـاة غاندى لم يكن منها بد لكى يبلغ الدرس العظيم تمامه. فلكـــأن القدر يقول لنا، والضمير الإنسانى يصيح فينـــا : انظـروا، إن المحب الودود الذى لم يؤذ طوال حياته بعوضة.. إن خير وأعظم رجال عصركم بأسره، لم ينج من أذى الكراهية التى تحملونـــها فى قلوبكم، والسلاح الذى تحملونه بأيديكم، فهل بقى ريـــب فيما يدخره العنف لكم من سوء المصير..!!!؟

* * *

إذا بقى فى العالم دولة واحدة تحمل أسلحة الفناء فسيكون ذلك مبررا أكيدا لكى تحمل كل الدول سلاحها، فالعنف ينادى العنف ومن هنا تعلن "تجربة غاندى" أن المصـــير الإنســانى لم يتطلب وحدة العمل الإنسانى فى شىء كما يتطلبـــها اليـــوم فى نبذ العنف.. ونـــزع السلاح وإلغاء الحرب ..

ولا أريد أن أقول إن على العالم أن يختار بين طريقين.. إذ ليس أمام العالم سوى طريق واحد هو الطريق الذى اختاره غاندى.. الحق والحب.. حيث تختفى الحرب، والسلاح، والكراهية، والباطل ..

وهى الطريق التى سارت عليها تجربة الضمير الإنسانى ووحدته منذ بدأ سيره من آلاف السنين.. وهو غرض الحياة الذى يبدو من إصرار الضمير على إدراكه، أن الله سبحانه قد خلق البشرية لتحقيقه ..

لقد كنا حين نصغى لهذه الدعوة، وهى تأتينا من نبى، أو مصلح قديم، نقول : تلك مثاليات أزمان بعيدة، لم يكن فيها ذرة ولاصواريخ ..!!

أما اليوم، فقد أثبتت تجربة الضمير مع غاندى، أن هذا النهج لم يكن صحيحا، ولاضرورة، ولاممكنا فى عصر من العصور، مثلما هو صحيح، وضرورى، وممكن، فى عصرنا هذا.

وإن تجربة "الحق والحب" هذه. فى عصر "غاندى والذرة" لتعتبر فى تاريخ البشرية كله نهاية مسير، وبداية مصير..

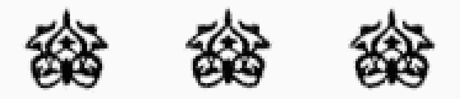
وإن عصرنا لهو الطليعة ..

فهل سيعجزه حمل الرسالة ..

كلا، ولو بدا ذلك مستحيلا ..

فإنه لامستحيل على القلب الشجاع ..

وإن عصرا يحمل تجربة غاندى فى يمناه.. ويحمل أســــرار الذرة فى يسراه.. لهو عصر ، شجاع قلبه.. وثيق عزمه.. مبشرة أيامه ... !!



المراجع

الفصل الأول

١. ما قبل الفلسفة

تأليف: هـ. أ. فرانكفورت وهـ. فرانكفورت وجون أ. ولسن وتوركليد جاكبسون. ترجمة : جبرا إبراهيم جبرا

٢. فجر الضمير

تأليف: برستد ترجمة: سليم حسن

٣. قصة الحضارة ـ جزء ٢،٣،٤

تأليف: ول ديورانت: ترجمة، د.زكى نجيب محمود ومحمد بدران

٤. الأدب المصرى القديم

تأليف: سليم حسن

٥. سقراط، الرجل الذى جرؤَ على السؤال

تأليف: كوراميسن ترجمة : محمود محمود

٦. إنه الإنسان

تأليف: خالد محمد خالد

الفصل الثانى

٧. القرآن الكريم

٨. الكتاب المقدس: سفر التكوين ــ إنجيل متى

٩. تجديد التفكير الدينى فى الإسلام

تأليف: محمد إقبال ترجمة: عباس محمود

١٠. معالم تاريخ الإنسانية ــ جزء ٣

تأليف: ولز ترجمة: عبد العزيز جاويد

١١. معا على الطريق، محمد والمسيح.

تأليف: خالد محمد خالد.

الفصل الثالث

١٢. العلوم عند العرب.

تأليف: قدرى حافظ طوقان

١٣. إنسانية الإنسان.

تأليف: رالف بارتون برى ترجمة: سلمى الخضراء الجيوشى

١٤. أربعة أيام من يوليو.

تأليف: كورنل لنجيل ترجمة: أحمد عبد الرحمن حموده

١٥. تاريخ إعلان حقوق الإنسان.

تأليف ألبير بابيه ترجمة: محمد مندور

١٦. كوخ العم توم.

تأليف: هريت بيتشر ستاو ترجمة: منير البعلبكى

الفصل الرابع

١٧. أساطين العلم الحديث.

تأليف: فؤاد صروف

١٨. فلسفة الهند ـــ سيرة يوجى.

تأليف: برمهنسا يوجانندا ترجمة: زكى عوض

١٩. عند قدمى غاندى.

تأليف: راجندرا برازاد ترجمة: منير البعلبكى

٢٠. اكتشاف الهند.

تأليف: نـــهرو ترجمة: دار العلم للملايين

كتب المؤلف

١- من هنا نبدأ
٢- مواطنون .. لا رعايا
٣ - الديمقراطية، أبدا
٤- الدين للشعب
٥- هذا .. أو الطوفان
٦- لكى لا تحرثوا فى البحر
٧- لله والحرية. (ثلاثة أجزاء)
٨- معا على الطريق محمد والمسيح
٩- إنه الإنسان
١٠- أفكار فى القمة
١١- نحن البشر
١٢- إنسانيات محمد
١٣- الوصايا العشر
١٤- بين يدى عمر
١٥- فى البدء كان الكلمة
١٦- كما تحدث القرآن
١٧- وجاء أبو بكر
١٨- مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩- كما تحدث الرسول (مجلد)
٢٠- أزمة الحرية فى عالمنا
٢١- رجال حول الرسول (مجلد)
٢٢- فى رحاب على
٢٣- وداعا عثمان
٢٤- أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦- عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧- .. والموعد الله
٢٨- خلفاء الرسول (مجلد)
٢٩- الدولة فى الإسلام
٣٠- دفاع عن الديمقراطية
٣١- قصتى مع الحياة
٣٢- لو شهدت حوارهم لقلت
٣٣- الإسلام ينادى البشر
٣٤- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
٣٥- قصتى مع التصوف

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة

رقم الإيداع ١٣٧٥٦ /٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-5732-37-9

مع الضمير الإنساني

في مَسيرهِ ومَصيرهِ

إن هذا الكتاب يُمثّل رُؤية تاريخية لموكب "الضمير الإنساني" في رحلته، منذ بدأ مَسيره حتى يومنا هذا . رُؤيةً تسعى إلى استجْلاء الخصائص التي يقود الضمير بها قافلة الإنسان صوْب كمالِها المقدور، كما تُحاول استِشراف المستقبل الواعِد لبني الإنسان من خلال التجربة الحيَّة للضمير.

ولئن كان ثمَّت ما تعارفَ الناس على تسميته بـ "الضمير الدولي" أو "الضمير العلمي" أو "الضمير الديني" أو "الضمير الاجتماعي" - فإننا نعني بـ "الضمير الإنساني" ما هو أعمُّ من هذا كله، وأكثر شمولا .

خالد محمد خالد



٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة

تليفون : ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩ - فاكس : ٥٠٨٢٢٣٣